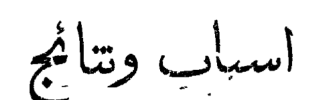
أسباب ونتائج



قاسم أمين



واخلاق ومواعظ

للمرحوم

قاسم بك امين

مصدراً بترجمة حياته

(نقلاً عن مجلة الهلال الغرآء)

طُبع على نفقة علي افندي الحطاب

الكتبي الشهير

بجوار جامع الشيخ بالاسكندرية

مطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٣

اسباب ونتائج

واخلاق ومواعظ

للمرحوم

قاسم بك امين

مصدراً بترجمة حياته

(نقلاً عن مجلة الهلال الغرآء)

ُطبع على نفقة علي افندي الحطاب

الكتبي الشهير

بجوار جامع الشيخ بالاسكندرية

مطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٣

قاسم امين

نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة

ولد سنة ١٨٦٥ وتوفي سنة ١٩٠٨

أُصيب الاسلام في اوائل هذا القرن بفقد غير واحد من كبار رجاله ونوابغ عماله نخص بالذكر اثنين من دعاة الاصلاح الاجتماعي او الديني احدهما الشيخ محمد عبده زعيم النهضة الاصلاحية الاسلامية في هـذا العصر والثاني قاسم بك امين نصير المرأة المسلمة والداعي الى اصلاح العائلة . وقد مات كلاهما و بينهما ثلاث سنين فخسرنا بذلك خسارة لا يعرف مقدارها الا الذين يعلمون افتقار الشرق الى ذلك الاصلاح ولا سيما العائلة فانها قوام الامة وقوام العائلة المرأة فلا تصلح الامة الا باصلاحها

(المرأة العربية قبل الاسلام وبعده)

تبين لنا من أبحاثنا في « تاريخ العرب قبل الاسلام » ان المرأة العربية كان لها مقام رفيع في التمدن العربي القديم فتعاطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر اعمال الرجال في الالف الثالث قبل الميلاد

اي منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة · وعرفنا دولاً عربية في اعالي الحجاز لا يتولى الملك فيها الا النساء · ناهيك بما تناقله العرب من اخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر · عدا اللواتي اشتهرن في اثناء الجاهلية من العرافات والكواهن ولا يتولى الكهانة الا الممتازون بالعقل والتدبير بعد ان ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع · ويقال بالاجمال ان المرأة في الجاهلية كان لها شأن وارادة وانفة ورأي وحزم · ونبغ غير واحدة منهن قبيل الاسلام وفي اوائله بالسياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذٍ فاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال · وممن اشتهرن بالحزم والرأي خديجة بنت خويلد زوج النبي واسماء بنت ابي بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزة نفسها وسمو منزلتها في ايام الراشدين وزاد توسعها في طلب المعرفة اذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غير واحدة بالشعر والادب واتت بعضهن اعمالاً يعجز عنها كبار الرجال · فلما افضت الدولة الى بني امية في اواسط القرن الاول للهجرة اصاب المرأة العربية صدمة قوية غيرت كثيراً من طبائعها لتكاثر الجواري والغلمان في دور الامراء وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر وتكاثر المخنثين في المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل

ولما استبحر عمران المسلمين في العصر العباسي زادوا انغماساً في

التقصف والخلاعة وفسدت النية بين الرجل وامرأته وهو صاحب الذنب لانه بدد شعائره وامياله بين عدة نساء فقلت ثقة امرأته به · ولم ينضج التمدن في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها · فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعاشرها على غل وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ · واصبح الطعن في طباعها وسوء سريرتها شائعاً على السنة الناس حتى الفوا فيها الروايات والقصص ونظموا بها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها · هذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف · واما الاشعار فاليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني واضعت نصحي فانت وان رزقت حجا بليد
الا ان النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التليد

واصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراء يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها · ووقفت عليه من غرائب امرها · لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية · فان ستر العورات من الحسنات · ودفن البنات من المكرمات · ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة · فقد استكمل النعمة · واذ زف كريمة الى القبر · فقد بلغ امنيته من

الصهر قال الشاعر :

ولم ارَ نعمة شملت كريمًا كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتي واهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرم

وقال آخر: وددت بنيتي وودت اني وضعت بنيتي في لحد قبري

وقال آخر: ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر: سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت »

هذا مثال من اراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة وقد زادت حطة وصغاراً في الاجيال الاسلامية الوسطى تبعاً للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك في القرون الاخيرة قبل هذه النهضة وقد تساوت في ذلك الانحطاط المرأة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاسلامي على الاجمال والناس سكوت ٠ لان القرائح جامدة والنفوس ميتة بما توالى على الناس من فساد الاحكام وتفشي الجهل ٠

فلما اخذ القوم باطراف التمدن الحديث واستنارت العقول بالعلم انتبه العقلاء الى المرأة وعمدوا الى النظر في تحسين حالها ورفع شأنها — بدأ بذلك المسيحيون لكثرة اختلاطهم باصحاب هذا التمدن وقد اصابوا منه حظاً وافراً اذ ليس في تقاليدهم او عقائدهم ما يمنع حريتها ٠ ثم اخذ عقلاء المسلمين يفكرون في حال المرأة المسلمة ويشعرون بحاجتها الى الاصلاح لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح المرأة ٠ فطفقوا

يتهامسون في ذلك تهيباً من مقاومة تيار العامة الذين يعدون التضييق على المرأة من حقوق الرجل

ثم اخذ بعضهم يتظاهرون بنصرتها وانشئت المدارس لتعليمها وظهر القائلون بوجوب اصلاحها وليس بينهم من تصدى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة لان الشجاعة الادبية كانت قليلة بيننا . واسبق المسلمين الى طلب الافراج عن المرأة في هذا العصر الاتراك في الاستانة لكثرة اختلاطهم بالاجانب وسبقهم في الاطلاع على اسباب التمدن الحديث . ولذلك كان كتابهم اسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب واول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب

اما في مصر فما زال العقلاء يتهامسون في هذا الموضوع وفي غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعي او الديني حتى صرح الشيخ محمد عبده بآرائه فلاقي ما لاقاه من المعارضة والنقمه وكانت وجهته الاصلاح الاسلامي على العموم بحل قيود التقاليد وتحكيم العقل في التفسير والتأويل الى ما فيه ترقية شؤون المسلمين . فكثر مريدوه والمؤمنون على اقواله وان قل المجاهرون بذلك على المنابر او في الصحف ومن اولئك القليلين فقيد الامس قاسم بك امين فانه اخذ على عاتقه القيام باهم اسباب الاصلاح المطلوب نعني تحرير المرأة . تصدى لذلك بشجاعة يندر مثالها

﴿ الشجاعة الادبية ﴾

الشجاعة الادبية ان يقول الانسان اعتقاده ولو كان فيه ما يسيء الكبراء او يهيج عليه العامة مما يؤول الى الخطر على حياته او مصلحته. واصحاب هذه المنقبة قليلون ولا سيما في الشرق بعد ما توالى على اهله من انواع الذل والخسف . واما في ابان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاة الامور الى نصرة الحق والضرب على ايدي الظالمين : فلم يكن الناس يخافون ان يقولوا ما يعتقدون حتى كان الرجل من العامة ربما انتقد الخليفة او الامير في وجهه لايخشى بأساً وقد تعود المسلمون ذلك من زمن الراشدين . فلما افضت الدولة الى بني امية وعمدوا الى الدهاء والشدة في تأييد سلطانهم امسكوا على الناس حريتهم . ومع ذلك فقد نبغ غير واحد بذلوا حياتهم في سبيل شجاعتهم كما اصاب ابا ذر الغفاري وحجر بن عدي الكندى وسعيد بن جبير وغيرهم . ولا تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية او الدينية بل هي لازمة في العلم والادب فقد عرض غاليليو حياته للخطر لمخالفة الاولين في قولهم عن ثبوت الارض

والانسان من فطرته حر الفكر يدلك على ذلك ما يبدو في كلام الاطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف والحذر وتضييق الفكر منذ الصغر بالخرافات والاوهام تقيدان العقل حتى يعجز صاحبه عن التفكير الا على القالب الذى صب عقله فيه — فعلى طالب الاصلاح قبل ان يحل لسانه من خوف العقاب ان يحل فكره من قيود

التقليد — هذه هي الخطوة الاولى نحو الشجاعة الادبية · وجمهور العامة مقيدو الفكر لا تمشي افكارهم الا على الخطة التي رسمتها عاداتهم فتبدو آراؤهم مسبوكة في القوالب التي اقتضتها تربيتهم او معتقداتهم · فقبل ان نطالبهم بحرية القول او الشجاعة الادبية يجب علينا ان نعلمهم «حرية الفكر» اي ان نجعلهم ينظرون في ما يعرض لهم من المسائل بعين العقل لا بعين الغرض وان يبحثوا عن الحقيقة المجردة بقطع النظر عما غرس في اذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم — ذلك ما يعبرون عنه باستقلال الفكر

فمتى اطلق الرجل فكره من قيود العرض او التقليد بقي عليه ان يصرح بما يرشده اليه عقله اذ قد يكون في تصريحه ما يسوء سواه او يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفاً او مسايرة فيسكت · وقد يتمادى في جر المنفعة لنفسه فيقول عكس ما يعتقده التماساً لرضى الآخرين· ونرى امثلة من ذلك شائعة بيننا لهذا العهد

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف طائفة غلبت عليها الاوهام وقيدتها التقاليد فلا تنظر في الامور الا بعين الغرض وبما تقتضيه تلك القيود فلا يلام اصحابها الا على الجهل · وطائفة حلت افكارها من تلك القيود وتظهرت في الامور بعين العقل فظهر لاصحابها في شؤون العامة خللٌ يقتضي اصلاحاً فمنهم من يسكت عن ابداء رأيه خوفاً من غضب الجمهور او مراعاة لرئيس او صديق — وهي جبانة وضعف · ومنهم لا يكتفي بالسكوت عن الحق بل يجاري تيار الجهلاء فيقول عكس ما

يعتقد — وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول ما يعتقده بشجاعة وصراحة لا يبالي بما قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر — وهي الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع الانساني ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح او الشارع الا رجلاً دعا الناس الى غير ما الفوه او تعودوه من اسباب الاصلاح الديني او الاجتماعي وضحى نفسه او مصلحته في هذا السبيل — وصاحب الترجمة من اولئك المصلحين

ترجمة حاله

كان ابوه امين بك ابن امير من امراء الاكراد أُخذ رهينة في الاستانة على اثر خلاف وقع بين الدولة العلية والاكراد . ثم جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم في الجيش المصري ورقي فيه الى رتبة اميرالاي وتزوج بكريمة احمد بك خطاب اخي ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولاداً اكبرهم قاسم صاحب الترجمة

وليس في ترجمة قاسم امين ما نراه في تراجم رجال الحرب او السياسة من الحوادث العديدة فقد ربي كما يربو امثاله من اولاد الوجهاء وتثقف في مدارس الحكومة المصرية وكان ممتازاً من صغره بالذكاء وحدة الذهن ولما اكمل دروسه كان في جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الى اوربا يتعلمون بنفقتها على جاري العادة في ذلك الحين فدرس الحقوق في فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ فتعين وكيلاً للنائب العمومي في محكمة مصر المختلطة وما زال يرتقي حتى صار مستشاراً في الاستئناف وكان في كل اعماله مثال الامانة والنشاط واستقلال الفكر

حتى توفاه الله بالسكتة في ٢١ ابريل الماضي وهو في الثالثة والاربعين من عمره

صفاته واعماله

كان رحمه الله ربع القامة اسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام وكان حر الفكر صادق اللهجة وقد زاده التبحر في القوانين والنظر في اقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالاً في الفكر وصراحة في القول لان القضـاء يعود صاحبه التمسك بالحق واجلال قدر الحقيقة وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم اذعان الناس لاقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لابداء آرائهم في كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ولذلك رأيناهُ محباً لامته راغباً في رفع منزلتها لان حب الامة من حب الذات ولا يحب امته الا الذي يحب كرامة نفسه ومن يتغالى في خدمة امته فانما يفعل ذلك حباً بنفسه

اطلع قاسم على احوال الامم الراقية في اثناء اقامته باوربا فتمنى ان تكون امته مثلها فنظر في اسباب الرقي فرآها كثيرة لا يمكن تناولها دفعة واحدة ولا يتيسر تناول شيء منها قبل اصلاح العائلة لان الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة فوجه عنايته الى اصلاح المرأة المسلمة · وليس هو اول من رأى ذلك او فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازماً مقداماً لا يكتفي بالقول والتذمر او الاستسلام

على عادة اكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلاً وسداداً عن المفكرين في العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولا يفعلون — وهي آفة المشارقة · اما قاسم امين فكان فعالاً اذا اقتنع بصواب فكر اخرجه الى حيز العمل · فلما عرف الطريق المؤدي الى اصلاح امته بادر الى مباشرته وهو يعلم ما يعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام · لان اصلاح المرأة يقتضي منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهي على الطلاق وتعدد الزوجات مما يعده العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ليس من الدين في شيء فاضطر ان يبين ذلك في اثناء بحثه · وبعد اعمال الفكرة الف كتابه « تحرير المرأة » واسمه ينمّ على منزلة المرأة المسلمة في اعتباره فهو يعدها مستعبدة وقد اخذ على نفسه ان يحررها · وعلم ان الناس سيكبرون قوله وينكرون عليه مشروعه حتى المرأة لانها الفت الذل وتعودت ان تعتبر نفسها من ادوات المنزل · فلم يكن يتوقع ان يرى ثمرة سعيه في حياته فرضي ان يضع الاساس لسواه فصدّر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما اريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قلّ المفكرون فيه لا ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني · وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها »

ثم بين حاجة المرأة المصرية او المسلمة الى الاصلاح موجهاً كلامه

الى الخاصة والعقلاء فاورد فصلاً في « ان حال المرأة في الهيئة الاجتماعية يتبع حال الآداب في الامة » لا يقرأه قاريء الا توسم من خلال سطوره الحماس الشريف ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة فقد افتتح كلامه بقوله :

« اني ادعو كل محب للحقيقــة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر »

ثم اخذ يبحث معي في حالة المرأة بالامة ويورد الادلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماس والاخلاص قال :

ولا يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التى لا يصلح فيهــا نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده اهل الوقت حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى او قضت به المصالح فى هذه الازمنة

« وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام . وما يرمي بهذه الكلمة الا حباً بالتخلص من مشقة الفهم او الخروج من عناء العمل في البحث او الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فاقول نعم اني اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها »

وافاض في بسط الموضوع وتأييده فافرد فصلاً لتربية المرأة وهو يعتقد انها مساوية للرجل لا تختلف عنه الا بما يستدعيه خلافهما في الصنف . وان تعليمها العلوم الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها على القيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس ابنائها . وقسم الكلام التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية ثم تكلم في الحجاب — وكان قد الف كتاباً بالفرنساوية قبل « تحرير المرأة » ردّ به على كتاب الدوك داركور الذي طعن فيه على المصريين وقبح اخلاقهم وعاداتهم واختصر قاسم في دفاعه عن الحجاب هنالك فافاض هنا في حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية واستأنف الكلام في « المرأة والامة » وبين ارتباطهما في فصل طويل

وختم كلامه بفصل في « العائلة » وتوسّع في الكلام على الزواج

وشروطه وبين ان الشريعة الاسلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهي عن تعدد الزوجات وتقبح الطلاق مسنداً اقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام العقلية . وفي كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه في خدمة امته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الايدي حتى تصدى لتخطئته اقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازىء اما تمسكاً بالقديم او مجاراة لاحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معائشهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول المراء فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الآداب وزعم غيرهم انه يرمي الى قلب الهيئة الاجتماعية المصرية وممالأة الانكليز على ضياع البلاد ...

اما هو فاغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطاً بكتاب آخر سماه « المرأة الجديدة » تكلم فيه عن « المرأة في حكم التاريخ » من اقدم ازمنته الى الآن في الامم القديمة والحديثة تايداً لرأيه في وجوب تحريرها ورفع شأنها وفي « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول في « الواجب على المرأة لعائلتها » و « التربية والحجاب »

ولم يكتف بطلب تحرير المرأة لكنه وضع لحريتها حدوداً و بين ما يجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاماً جعله نموذجاً تنسج على منواله اذا شاءت تحرير المرأة واعطاءها حقها الشرعي والمدني . فقيد ارادة الرجل في الطلاق بحكم القاضي او المأذون بعد ان يرشد

الزوج الى ما جاء في الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله وينصحه ويبين له تبعة عمله واذا ابى الاصغاء وسط حكماً من اهله وحكماً من اهلها للاصلاح بينهما . فاذا لم يفلح في ذلك كله اذن بالطلاق . ولا يخفى ما في ذلك من تدارك الاضرار التي تصيب العائلات بتسرع البعض في تنفيذ طلب الطلاق وقد يكون طلبه عن غضب موقت فاذا ثاب اليه رشده ندم على ما فرط منه .

ظهرت كتابات قاسم في هذا الشأن من منذ سنوات فشغلت الالسنة والاقلام عاماً او عامين تنبهت فيهما العقول وثارت الخواطر وقام الناس وقعدوا وقد لاقى من العقلاء اعجاباً كثيراً فنصره بعضهم بالسنتهم واقلامهم وسكت الآخرون مجاراة للعامة ونصرائهم . واكثرهم مجاهرة في نصرته واخذاً بيده عزتلو ابراهيم بك رمزي فانه انشأ يومئذٍ مجلة سماها « المرأة في الاسلام » جعلها وقفاً على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت . ثم سكت الناس لا عن اهمال او اغفال ولكنها فترة الحضانة ريثما تتكيف عقول الامة لقبول تلك الآراء — كالتلقيح بالجواهر النافعة فانه يحدث عند دخوله البدن تهييجاً وقد يولد صديداً ثم يسكن في الظاهر ويعمل عمله رويداً رويداً . وقد اخذت نتائج ذلك السعي تظهر برغبة الناس في تعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية . وهذا من ادلة تسرب فكر قاسم بالتدريج

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل ان تتحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقي وتتولى الاعمال العامة وترفع شأن العائلة كما كانت

سالفاتها في جزيرة العرب منذ آلاف من السنين فاذا بلغت الى ذلك الرقي تذكر صاحب الفضل عليها وتعظم ذكره فيبقى اسمه منقوشاً بحروف من نور على تاريخ الاجتماع الشرقي في التمدن الحديث

﴿ اعماله في غير تحرير المرأة ﴾

قد تمرُّ القرون والناس على ما ساقتهم اليه الفطرة في طلب المعاش لا يفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افراداً ينهضون بالامة الى ما يظنون فيه خيرها — هؤلاء هم اقطاب العالم ودعائم الهيأة الاجتماعية فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينال الفخر بحياته ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجنِ ثمر سعيه ولكن مغاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأى والرغبة في خدمة الامة فعهدوا اليه باعز المشروعات لديهم نعني انشاء « الجامعة » فولوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعاً في سبيلها الى آخر ساعة من حياته وله بشأنها خطبة القاها في حفلة حسن باشا زايد كلها حكم وحجج واستنهاض وترغيب

ذكرنا للفقيد فضله في نصرة المرأة لانه اظهر اعماله الاجتماعية ولكنه كان راغباً في سائر سبل الاصلاح يطلبها من ابوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحيحة لا يغويه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد . وكان يشير الى ذلك في اثناء اقواله ويحتاط له ويدفعه . وله فى ذلك الاصلاح على اجماله

مقالات كان ينشرها فى المؤيد عنوانها « اسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن

وله اقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة او مثالاً نشرتها ادارة الجريدة في كتاب سمته « كلمات لقاسم بك امين » هو عبارة عن مختارات افكاره او مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعية وشذرات علمية يجدر بالادباء الاطلاع عليها والتمثل بها وهذه امثلة منها :

ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

اذا استشارك عدوك فاخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب اهل الدين وغرور اهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسئلة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم اي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف هذا المجهول الذي كان ويكون بعد الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين.

ان كان في الوجود انسان يستحق ان يحسد على نعمته فهو العاشق

من اختباري لارباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لي ان

الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار تتوقد في القلب — حمية الفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك اثراً بعدها

لا ادري ما هي غاية الكتاب الذين اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون انفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلاً كلمة السيارة بدلاً من كلمة اوتوموبيل ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه اتم من الكلمة العربية وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا انفسهم امراً مستحيلاً اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

لا تكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت اقواله)

وجملة القول ان قاسم امين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعة وفضلهم ظهوراً بتوالي الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامي على الاجمال بنصرته للمرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصري بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه واصدقائه وغيرهم . لانه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لا يراعي في الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاماً — فموته خسارة يصعب تعويضها رحمه الله (انتهت)

﴿ اسباب ونتائج ﴾

يشرح المؤرخ اطوار امة في زمن من عمرها بتعريف اخلاقها وعوائدها ونظاماتهـا وتربيتها ووسائل معيشتها وحالتيها الاقتصادية والسياسية داخلاً وخارجاً وما هي عليه من درجة الافكار والعلوم والآداب والفنون ويبين في خلال ذلك ماطرأ عليها من الحوادث المهمة حتى يخيل للقارىء مع ذلك البيان الشرح والتعريف المفيد انه كان عائشاً في وسط اهلها وقد لا يعتني الا قليلاً بسرد الحوادث كما يفعله مؤرخونا باجلائها امام اعين القراء كما يجلي الرجل صاحب (صندوق الدنيا) العجائب والغرائب امام ابصار الطفل وهي تكاد تزوغ من الدهشة والاستغراب

وبهذه الطريقة صار التاريخ من اهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعي

وكما يفعل المؤرخ في الماضي يفعل الكتاب المشتغلين بالاحوال العمومية في الحال فيدرسون زمانهم درساً تاماً ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم واخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك ٠ ان هذه الامور انما هي العلل التي انتجت تلك الحالة وان تغييرها لا يكون بالصدفة وانما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة اذ السبب والمسبب دائماً متلازمان عقلاً وعادة متي وجد احدهما وجد الاخر حتماً

وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى في العالم كله فليس في الكون شيء وجد بلا موجد وسببٍ واضح او خفي معروف الآن او يكشفه المستقبل

وهذا القانون الالهي وان كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية . اولاً لان معارفنا المختصة بالمجتمع الانساني هي في الحقيقة في اول نشأتها وعلى حداثة عهدها . وثانياً لان الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد بل يشترك في مقدماتها عدة اسباب متنوعة . وثالثاً لانها تظهر دائماً انها تحت ارادتنا وان لنا سلطة في ايجادها واعدامها وتعديلها . ولكن يكون من الخطأ الجسيم ان نعتقد ان الجسم الاجتماعي ليس خاضعاً لذلك القانون العام كغيره

وآية « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » هي اساس لذلك القانون وبها يظهر للقاري كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية كما تتفق معه دائماً لو كان القائمون بشؤونها رجال اكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها باصابة ادراك

على ان حالة الامة في السعادة والشقاء او التقدم والتأخر ليست حالة توجد او تتغير بحكم الصدفة بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الامة

فان كانت امة نشيطة متربية متمدنة كان لها الحظ في الدنيا وان كانت كسولة جاهلة ذات اخلاق رديئة كان لها الشقاء فيها

والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول فهي لا تتغير ابداً الا بمجال آخر . بمعنى ان ارادة شخص او مائة شخص او اصدار قانون او مائة قانون كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس

وعليه فاذا اراد من يهمهم اصلاح امتنا من رجال الحكومة وابنائها الذين يفتكرون في الطرق اللازمة لاخراجها من حالها ونقلها الى حال آخر ان يفعلوا شيئاً نافعاً : فعليهم ان يكشفوا لها الستار عن عيوبها جميعها مهما كانت مرة المذاق او مخجلة وان يربوها على التجمل بالعوائد الحسنة ان لم يكن بالتأثير على معاصريهم فعلى ذراريهم من بعدهم

ولذلك شرعت في هذا العمل باحثاً عن حالتنا الحاضرة لا من جهة السياسة فاني لست مشتغلاً بها الا من حيث كوني مصرياً احب الوقوف على الحوادث التي تجري في وطني . وللسياسة الآن رجال قائمون والحمد لله بخدمتها واستخدامها اكثر مما يحتاج اليه الحال. بل من الجهات الاخرى كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين

والغرض الوحيد الذي اسعى وراءه انما هو الوصول الى الحقيقة لانها وحدها هي التي تحتوي على البذور الجيدة التي تنمو وتثمر

١

(الحالة الاقتصادية في مصر)

اعطني مالية حسنة اعطيك سياسة حسنة

تقول العامة « ان مصر ام الدنيا » والاصح اذا قورن بينها وبين مدن الممالك الاخرى مثل لندره وباريس وهامبرج وبروكسيل وامثالها ان

تسمى « خادمة الدنيا » لانها لو وضعت في جانب هاته المدن لظهرت في حالة فقر محزنة كما لو وضعت سائلة مكدية ذات اطمار بالية قذرة في جانب عروس متجلية بافخر الملابس واثمن الحلى وابهاها

وفي الحقيقة ان مصر بلدة فقيرة جداً نصف اهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشيء التافه الذي يقي الحي من الموت جوعاً . والنصف الاخر ينقسم الى قسمين . الاول يشمل التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالي مليّ . والآخر يحتوي على الموظفين وارباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعاً ما في معيشتهم . ولكن اغلبهم ان حيل بينه وبين مرتب المعاش شهراً واحداً وقعوا في العسرة والضنك الشديد

اما ارباب الاطيان من الذوات والعمد والمشائخ والاعيان في البلاد فحالهم كحال « رابيل » المؤلف الفرنساوي المشهور اذ قال في وصيته « اني لا املك شيئاً وعليّ ديون كثيره واوصى ببقية ما املك للفقراء »

والبلد التي يكون اهلها فقراء مثلنا لا يمكنها ما دام فقرها ان تؤمل خيراً في المستقبل لان حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها اذ بالمال يتم كل شيء وبغير المال لا يتم شيء مطلقاً

والمملكة لا تكون غنية الا اذا كان اهلها اغنياء ولذلك قال احد السواس المشهورين : اعطني مالية حسنة اعطك سياسة حسنة

وعلى هذه القاعدة وجهت كل امم اوروبا التفاتها الى المسائل

الاقتصادية واعتنائها بها كل الاعتناء فانشأت نظارة للتجارة وللصناعة وللمستعمرات واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية وتهافتت على وسائل الاستعمار . وصارت كل أمة تزاحم الاخري في هذا السبيل . والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد: فلا تتأخر واحدة منهن عن بذل المال والروح في توسيع دائرة تجارتهــا وفتح الابواب لتصريف مصنوعاتها حتي ان رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لا بد من الحرب يوماً بين انكلترا والمانيا لان المنافسة بين الامتين في جميع انحاء الدنيا اوصلتهما الى درجة اعتقاد ان احداهما لا يمكن ان تستمر في طريقها الا اذا سحقت الاخرى

ونحن معاشر المصريين لا شغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاشراف على ميدان هذا التنافس للتفرج على المتنافسين والاعجاب بهذه الامة والاستهزاء بتلك . كأننا عالم من كوكب آخر حضرنا الى هذه الدنيا للتفرج على اهليها اياماً معدودة ثم العودة الى اوطاننا بعد ذلك بسلام

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن . نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منها ان يبتلعها في جوفه

وبمثل تلك المساعي المتقدمة توصلت الامم الى اقتناء الثروة وكثر فيها الاغنياء والماليون الذين اصبحوا يتعاملون بالملايين كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات

ولكن الشيء المهم الذى ارجو ملاحظته هو ان كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل صاحبها . ترى الرجل مثلا في

امريكا يبتدىء في تجارة او صناعة حقيرة فيصل بعد بضع سنين الى مصاف الماليين الذين يحرزون الملايين . فلماذا ؟ — لانه يشتغل ليكسب فالواحد منهم يشتغل دائماً . يشتغل في النهار ويفكر في شغله بالليل . وهو قد تربى على ان يشتغل . وتربى على ان يعتمد على نفسه « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » . فالتربية والعادة قد اوجدتا فيه الاقدام على الشغل والعمل . فهو يتفكر في كل شيء ، ويلاحظ كل شيء . ويجرب كل شيء . فان وصل فاز وشجعه النجاح على الاستمرار . وان خاب ووجد في طريقه عقبة ولم يستطع ازالتها بهمته استأنف السعي في عمل آخر او في نفس العمل من طريق آخر . فهو على كل حال حي ثابت عامل . جسمه يتحرك ومخه يؤدي وظيفته كأنه آلة متى غادر سرير نومه في الصباح ادار دولابها فتدور وتستمر دائرة الى وقت لا مناص فيه عن الراحة بالنوم

وعلى العكس من ذلك الواحد منا معاشر المصريين — او الشرقيين كافة — فهو كالبرزون الذي يعلق في الساقية يمشي الهوينا خطوة فخطوة وعلى عينيه غماء . وقد يقف بعد كل خطوة حتى يسمع صوت الفرقلة فيجاهد بنفسه خطوة ثم يقف . وهكذا حتى المساء حيث يقدم له علفه فيأكله طيباً او رديئاً ثم يهوي بجسمه كالشبح المرضوض على الارض فينام تعباً كسولاً بل مكسراً مهشماً حتى الصباح

﴿ اسباب ونتائج ﴾

٢

(الاستقلال في المعيشة قبل كل الاستقلال)

ان اول شيء يجب على كل فرد من افراد اي امة ان يكد في طريقة تضمن له معيشته ان لم يكن بعمل يعود نفعه على الهيئة الاجتماعية فعلي الاقل لا يعود منه ضرر عليها · لان امر معيشة الانسان هو في مقدمة كل احتياجاته ·

فعلى كل نفس تحترم ذاتها متى كانت قادرة على الكسب ان تكون مستقلة غير محتاجة للغير تكفل نفسها بعملها · ولا يباح لها مطلقاً ان تكون عالة على غيرها

ولكن من الاسف نحن نري في مصرنا عدد غير قليل من اهليها عائشين بكيفية تأباها كل طبيعة شريفة فقد لا يخلو بيت من وجود شاب او رجل بلغ الاشد او كهل ذي اعصاب قوية وقامة قويمة مقيم فيه آكلاً شارباً بحجة انه قريب لصاحب المنزل او صاحبته

وربما كان هذا الرجل مستخدماً فرفت فلا يلبث ان يحتل دار احد اقاربه احتلالاً ابدياً يأوى اليها ويأكل منها ويمضي أكثر اوقاته في النوم · واذا لم يكن نائماً تراه جالساً علي كرسي امام الباب او علي حانوت او قهوة مجاورة له وفي الغالب تكون في يده سبحة يحرك حباتها باناملهِ · وقد يذهب الى الجامع في اوقات الصلاة ان كان من الاصل صالحاً او طالحاً وأتاب الى الله موءقتاً بعد رفته حيث يستمر كذلك

الى ان يعود الى الخدمة فيعود الى فسوقه

ويعيش على هذه الحال الايام والشهور والسنين بلا سعي ولا عمل ولا حركة · واذا تحرك وسعى يوماً فقصارى جهده ان يذهب الى احد دواوين الحكومة ليستعطف روءساء المصالح ان يذكروا اسمه عند خدمة تقوته ويعيش منها

ومركزه في المنزل الذي يأويه مركز حرج فلا هو سيد ولاهو خادم وهو في الحقيقة ممقوت من الاثنين وناقم عليهما حيث يخيل له ان قريبه قد مل مقامه عنده وصار يلحظه شذراً او يغض عنه النظر او لا يعطيه ما يكفيه من الدخان او لا يفتكره بخمسة قروش في اليوم · وان الخادم يعامله بالخشونة او لا يسمع كلامه كثيراً او يسخر منه ويزدري به من طرف خفي · وهكذا

واذا خلا بصاحب لهُ يقول لهُ ماذا اصنع يا اخي في هذا الوقت الصعب والحكومة اقفلت ابوابها في وجوه ابنائها

ماذا تصنع ؟ اذا انت اصغيت لنداء ضميرك فاصنع كل شيء :

كن تاجراً · كن مزارعاً · كن صانعاً · كن خادماً · كن كيفما تستطيع ان تكون · فانه احسن لك وللناس مما انت فيه

هب ان الحكومة قررت ان لا تأخذ من الآن موظفاً مصرياً فهل يموت المصريون جوعاً ؟

الا تنظر كيف يصنع الاجنبي · ولا اتكلم عن الانكليز في بلادنا فان لهؤلاء نفوذاً ظاهراً · ولكن اتكلم عن الرومي والارمني والسوري

والهندي والعجمي والطلياني وامثالهم

انت تعلم ان الفرد من هؤلاء يأتي خالي الوفاض صفر اليدين فيبتدىء شغله بحرفة صغيرة مهما كانت دنيئة هي اشرف من البطالة التي هي حرفة الكثير من المصريين . وهو اذا ربح اليوم قليلاً قليلاً فقد ينمو وتزداد ثروته بعد ذلك حتى يصل الى اعلا درجات الثروة . وانت ايها المصري البطال ابن البلاد وادرى بما فيها ولك فيها القريب والحبيب فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الى بلادنا ؟

انا لا اجهل ان للانسان على الانسان وخصوصاً على القريب حقوقاً مقدسة وان مساعدة ذوي القربا واجب ديني واجتماعي ولكن ليس من الواجب بل ولا من البر مساعدة الكسلان والتشجيع على البطالة انما البر عند الاحتياج الحقيقي وهو يكون اذا وجد المانع عن الاحتراف والتكسب

اما مساعدة الشخص القادر على العمل فيجوز ان تكون وقتية لعذر طارئ ويجوز ان تكون لتحسين حالة شخص يكسب قليلاً . ولكن من العبث ان يقوم شخص بجميع حاجات شخص آخر . ومن العار على هذا ان يقبل مثل هذه المعيشة وان لا يرضى بحال كل حرفة مهما كانت منحطة في اعين الناس فلا يمكن ان تكون احط منها

ولهذا اتمنى قبل كل شيء ان ارى يوماً جميع اهل بلادي مستقلين في معيشتهم يعيش كل فرد منهم بنفسه

﴿ اسباب ونتائج ﴾

٣

(اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً)

اجزل وصية نطق بها الانسان للانسان « أعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً . واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

ونحن نقتصر على الوصية الذهبية الاولى لان المصريين اصبحوا في خمود اشبه بالموت . فهم الآن اعوز الى التذكير بالحياة منهم بالموت .

من البديهي ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف لانه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان التنافس في المزيد . فعلى الانسان ان يسعى والحالة هذه لتحسين حالتيه المادية والادبية . فان كان يكسب في اليوم قرشين فعليه ان يجتهد في توصيلها الى خمسة ثم الى عشرة وهكذا . اما المحافظة على حالة معيشة دنيئة فذلك امر لا يرضاه الا قليل الحيلة قليل العقل قليل الشعور بمزية الحياة الطيبة ان لم يكن عديمه بالمرة

ومن الاسف اننا قد وصلنا بالخمول الذي حافظنا عليه في المعيشة الى حدود السكون فالموت

سر يوماً بين الاسواق المصرية القديمة تجدها كما كانت قبل الطوفان حقيرة غير منظمة . لا تحرز الا نوعاً او نوعين من اصناف البضائع العتيقة المهجورة الاستعمال . وتشاهد صاحب الدكان يجلس من الصباح

الى المساء في شرب الدخان ومطاردة الذباب عائشاً عيشة بهيمية لا يتخللها تصور ولا فكر الا اذا كان وقيعة بالغيبة والنميمة في حق جاره

ان حضرت اليه امرأة اجلسها بجانبه واخذ يجاذبها اطراف الحديث ساعة او ساعتين . وان حضر له رجل اجلسه وامر له بالقهوة . ومن بعد التحيات والسلام والاكرام يتبادلان الاخذ والعطاء فالمناقشة فالجدال والنزاع كخصمين لدودين فالايمان الكاذبة . ثم ينتهي الحال على ان يبيع قطعة او قطعتين كل النهار فيربح قرشاً او قرشين

نترك هؤلاء وننظر الى طائفة اخرى من ارباب الاشغال العقلية فنرى هذا الطبيب او ذاك المهندس مستخدماً في الحكومة بمرتب قليل نحو خمسة او عشرة جنيهات في الشهر يعيش بها هو واولاده وزوجته وفي الغالب انه يعول واحد او اثنين من اقاربه . فاذا خرج من ديوانه او فرغ من اداء وظيفته الذي لا يستغرق الا سويعات من نهار قضى بقية اوقاته في الزيارات والقهاوي

فهلا خطر ببال ذلك التاجر او هذا الطبيب او المهندس وامثالهم ان يخرجوا من هذه الحالة الدنيئة وان يزيدوا في اعمالهم فيزيدوا في جني ثمراتها

وليس الغرض من تحسين الحال على هذه الطريقة ان يجمع الانسان المال حباً في المال بل المراد ان يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء . ولا يكون له ذلك الا اذا سعى في استزادة موارد كسبه ليتسنى له ان يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه وان يستعمل ما يزيد

بعد ذلك عن حاجاته المادية في ترقية عقله وتربية اولاده بالرياضة والتعليم والسياحة وان يأتي من الافعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله

ولا تحسبن ان المانع من اهتمام المصري بترقية شأنه قناعة في النفس وزهد في الاموال ورغبة عن زخارف الدنيا · لانه لو كان الامر كذلك ما وجد مصرى حاسداً غيره على نعمته ولا ناظراً لذى غنى نظراً شذراً · والمصريون كلهم بين شاك ومشكو من هذا الحال فالمصري اذاً طماع كغيره وليس عنده من الزهد ماليس لغيره ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه

فهو اذن يحب ان تمطره السماء ذهباً وان تنبته الارض فضة · يحب ان يكون اغنى الناس على شرط ان لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره

والسبب في سقوطه هذا امران : الاول سوء معاملة الحكومات السابقة له فانها بغدرها وظلمها اضاعت الامانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة في الشغل · والثاني سوء تربيته فان عدم تشغيل الجسم وتحريك الاعضاء والجلوس ساعات بل واياماً على المقاعد والمراتب والمصاطب وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ وترك النظر في الاشياء مع شدة التمسك بالاقوال والامثال المثبطة للهمم المميته للعزائم وتكرار سماع القصص والاحاديث التي وضعت في الاصل لتسلية الفقير وازالة الاحزان عن الضعفاء قليلي الحول والحيلة ولكن غشيتنا جهالتنا والفيناها

قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها وحشيناها ووشيناها حتى تشربت بها ارواحنا وعقولنـــا . كل ذلك قد انتهى مع الزمن وبتأثير الوراثة الى اضعاف قوانا شيئاً فشيئاً . فاذا نادينا يوماً اعضاءنا وطلبنا منها حركة مهمة ولو كانت صغيرة خانتنا فلا تسمع نداءنا واذا سمعت واردنا الاستعانة بافكارنا وهنت فطاش سهمنا . وعلى كل حال فلا نلبث ان نشعر ونحس بعجز انفسنا فلا نجد لنا ملجأً الا الراحة التي اعتدنا عليها و بئس المصير

وهذا هو السر في ان جميع الاعمال القليلة التي شرعنا فيها كتأسيس مدرسة او انشاء جمعية او تشكيل نادٍ او عقد شركة لم تعش الا بقدر ما تعيش الوردة

﴿ اسباب ونتائج ﴾

٤

(لماذا لا يوجد في مصر اغنياء)

كان المصريون الى عهد غير بعيد ينظرون الاتجار بعين الاحتقار و يحسبون انها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار . والى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطاً على عقول بعض الامراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوي الموشاة بالذهب ووضعوا النشانات على صدورهم وعلقوا في مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم الى الارض تخيلوا انهم من انسانية اخرى اعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بايديهم و يباشرون بانفسهم حل وعقد البضائع و يقفون في حوانيتهم باشين في

وجوه الوافدين منتظرين ان يطلبوا منهم شيئاً فيحضروه بين ايديهم في الحال . وهم يرون كل خدمة غير اميرية وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي اشياء لا يليق الاشتغال بها

ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الان بالتجارة الا فئة قليلة برهنت على ارادة واقدام واصالة رأي تستحق عليها ثناء الامة المصرية باسرها

ولو قارن اي انسان لم يعمه الجهل بين هؤلاء التجار الذين دخلوا في ميدان الحياة والقوا بانفسهم في معامع الكفاح والتنازع حتى خرجوا منهـا فائزين . وبين اولئك الذين منبع ثروتهم في الاغلب العطايا والمنح التي كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج او لسبب خدمة خصوصية او خلق مقبول او رذيلة محبوبة لرأى اي فريق يحق له ان يعجب بنفسه او يحتقره الآخر

وقد مرت على اوربا ازمان كان فيها امراء البلاد متى قدم لهم رجل يسألونه : ابن من انت ؟؟ . ثم اتى حين بعد ذلك كانوا يسألونه فيه : ماذا تصنع ؟؟ . والآن لا يسألون الا عن قيمة الشخص في حد ذاته من حيث مبادئه واعماله

ونحن لا نزال على شيء كثير من تلك الاوهام والوساوس القديمة متعقلين باهداب خدمة الحكومة معتبرين انها اشرف مطمح

وانا اخاطب اليوم كل اب لابن واسأله ماذا يقصد من تعليم ابنه فاذا قال انه يريد ان يهيئه لخدمة الحكومة فقط لينال الشرف والرتب والوسامات مثله فليس لي معه كلام . واما اذا كان ممن يحسبون ان

خدمة الحكومة هي الطريق الذي يضمن مستقبل ولده فليعلم انه مخطئ خطأً فاحشاً

ولست محتاجاً قبل كل شيء ان اذكره بان زمن العطايا قد انقضى بل يكفي ان اثبت له ان قد صار من المستحيل اليوم ان يصل الانسان من طريق الحكومة — لا الى الثروة حيث الامر واضح جلي لا يحتاج الى دليل — بل الى درجة من اليسر الذي بدونه لا يمكن الانسان في وقتنا الحاضر ان يقوم بجميع حاجاته

ولتوضيح ذلك نضرب للقاريء مثلاً

خرج الشاب من مدرسة الطب وفي يده شهادته فاذا اراد ان يستخدم في الحكومة عينته حكيماً لاحد المراكز ولكن بعد انتظار سنة على الاقل بمرتب متوسطه سبعة جنيهات . ثم ان كان له حظ بعد ذلك — وهيهات هذا الحظ — ترقى كل ثلاث سنوات مرة باضافة جنيه او جنيهين على مرتبه

فان وصل مرتبه بعد عشرين سنة الى عشرين جنيهاً مثلا كان محسوداً من جميع اقرانه

ولا يختلف مستقبله عن مثل ذلك ان كان مهندساً او متشرعاً او كاتباً او معاوناً الخ

هذا اذا استمر في وظيفته كل هذه المدة ولم يرفت بالاستغناء او مجلس التأديب . اما اذا رفت ولم يكن له معاش او كان له معاش قليل فحسبك ان تراه بعد ذلك تعيس الحظ في حيرة لا يدري معها

ماذا يصنع بعد ان نشأ وشب مطبوعا على التوكل على الله ثم على الحكومة وبعد ان قضى احسن وقت في عمره بدون مجاهدة نفس وتفكر وبلا شغل يذكر

ولو فرضنا الان ان الشاب اعتاد من اول نشأته على ان يتوكل على الله ثم على اشتغاله وكده وسارت معه وظائف فكره واعضائه تنمو بدوام الشغل والعمل وطار باجنحة آماله في الدنيا وذاق حلاوة الكسب من عرق جبينه فلا تراه بعد تعب عشرين سنة كالتي قضاها ذلك الموظف الا ذا ثروة عظيمة مالم يكن خلقه الله مجرداً عن كل استعداد طبيعي ·

فعلى الآباء ان يعدوا ابنائهم الى غاية الوصول الى السعادة وان يفتحوا امامهم ابواب الآمال لانها ابواب الثروة الحقيقية وان يعطوهم الوسائل للحصول عليها · واول شيء يجب ان يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة

ان الاوربيين يجمعون الاموال الطائلة لا لان الله خلقهم اشد منا عضلاً واتم تركيباً · ولا لانهم اوتوا مفاتيح كنوز خفية لا يمكن ان نصل اليها نحن · بل لانهم فهموا ان التجارة هي علم الثروة وهي علم حقيقي لا يقل في الفضل عن اشرف العلوم · يدرس في المدارس ويتمم بالاختبار والعمل · ويوجد الآن في المانيا عشرون الف تلميذ يتعلمون التجارة في المدارس وتوجد في النمسا اثنتان وستون مدرسة تجارية يتعلم الشبان فيها مسك الدفاتر ونظام البنوك والحساب والرسم والقانون التجارى والجغرافية الاقتصاديـة وقيمة النقود باختلاف البلاد والتأمينات

واللغات الاجنبية ·

وفى انكلترا وفي امريكا كل تربية لا تعتبر تامة الا بعد ان يمكث الشاب ستة اشهر او سنة في مدرسة تجارية

فالاوربيون اذن لم يصيروا اغنياء الا بسببين: الاول احتقار الاستخدام في وظائف الحكومة وعدم الالتجاء اليها الا عند الحاجة · والثاني احترام التجارة والاقبال عليها اكثر من اقبالهم على بقية العلوم الاخرى

ونحن على عكس ذلك : نحترم الوظائف الاميرية ونعهدها منتهى الفخار والشرف ونحتقر التجارة ولا نقبل عليها حتى عند الحاجة المطلقة — فكان نصيبنا الفقر الاسود

﴿اسباب ونتائج﴾

٥

﴿لماذا لا يوجد في مصر اغنياء ايضاً﴾

لانه علاوة على الاسباب التي سردناها في الشذرات الماضية يوجد سبب مخصوص يجب الالتفات اليه : الا وهو سوء تربية الاولاد

فقد وجد في مصر عدد كبير من الرجال الذين احرزوا — اما بكدهم وجدهم واما من عطايا الولاة السابقين واما من مجموع ذلك او من طرق اخرى لا حاجة لذكرها الان هنا — ثروة تذكر في مصر ولكن لسوء حظهم او حظ الامة المصرية الاسيفة انهم اعتنوا بجمع الاموال جهد الطاقة ولم يعتنوا مطلقاً بتربية اولادهم

ولهذا شاهدنا ونشاهد كل يوم انه متى فارق الاب الحياة الدنيا

وقبل ان تجف دموع الباكيات عليه تستطير نيران الشقاق بين وارثيه بانين منازعاتهم على الطمع والغباوة والعناد حتى يخسروا الجزء الاعظم من التركة بين مصاريف قضائية واجر للمحامين · ثم اذا كانت بقية بعد ذلك القوها في حجر عاهرة او بعثروها على طاولة قمار بحيث لا يمضي على الوارث الجديد بضعة اشهر او بضع سنوات حتى يكون في حالة يرثى لها ·

ولو كان المتوفي رحمه الله التفت الى تربية اولاده عشر ما التفت الى جمع المال فغرس فيهم الاخلاق الحسنة وافهمهم ما هي المعيشة واشركهم في اعماله وافكاره وفتح عيونهم في منظر الدنيا الحقيقي وايقظ عقولهم لحافظوا على ما ترك وجعلوه في المزيد

وان الثروات الطائلة الهائلة التي نشاهدها في اوربا او نسمع عنها ليست ثمرة عمل شخص واحد بل يشترك دائماً في تكوينها عنصران او ثلاثة · فتنتقل من شخص لابنه لحفيده وهكذا تنتقل نامية مضاعفة

ولذلك ترى بيوت تلك البلاد السعيدة على الحالة التي تركها عليها الاب او الجد او هي — على الغالب — احسن مما كانت عليه

ترى هنالك بيوتاً محترمة تمضي عليها العشرات من السنين بل والقرون قائمة جميلة تذكر اسم مؤسسها وتشهد لحائزها الحالي بانه من نسل عريق في النعمة والمجد والشرف : هذه الصفات التي تلازم دائماً الانسان الذي يبرهن على قدرة في العمل

اما عندنا فالامر على العكس من ذلك : نشاهد بيوت ذواتنا وكبار

سراتنا اياماً معدودات ثم لا نلبث ان ننساها بالمرة بعد موتهم

يكون الرجل منا في كوكبة جلال وابهة ومظهر نعمة فخيم. ثم اذا قضى نحبه شاهدت البيت الذي كان بالامس كعبة الوفاد والقصاد مظهر النعمة والجلال والجمال على عكس حالته الاولى : خاوياً كئيباً خرباً يسكنه العنكبوت والبوم والفيران والجرذان · او يسكنه غلام لا يليق الاجتماع به

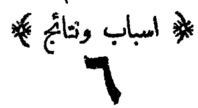
على انه لو كان تبديد الثروة على هذا المنوال راجعاً بالفائدة على اهل البلاد بحيث يخرج المال من يد الوارث الى ايديهم لكان الضرر محتملاً · ولكن كل يعلم انه توجد طائفة من سكان القطر تطوف دائماً متخللة المنازل والجدران · فمتى ابصرت بركة مفتوحة حديثاً حامت حولها وتزاحمت على الوارث كما تجتمع الطيور المفترسة على الجيفة

يتقدمون للوارث ببذل المال عن كرم حاتمي فيظن هذا المسكين انهم اخوان صفاء ورجال مروءة فيكب عليهم بجميع اهوائه ويقترض منهم ويمضي على اوراق لا يفهمها · ثم يستمر كذلك على أن يسلسل منهم ديناراً بعد درهم ومئات بعد عشرات حتى اذا آن الوقت المناسب ونضج لحمه واستوى انقضوا عليه بمخالبهم وطعنوه الطعنة القاضية على حياته ·

ذلك هو تاريخ كل ثروة في مصر الا بعض مستثنيات نادرة· ونحن نراه كل يوم ونسمع ونتحدث به ونأسف عليه والاغنياء انفسهم يعلمون مصير ثروتهم من بعدهم · ولكن نراهم مع ذلك يتثبتون من النتيجة ولا يفتكرون في المقدمات والوسائل التي تزيلها · وان

افتكروا فيها فلا يعملون لازالتها . وان عملوا اهملوا اهم شيء وهو التربية لانها شيء صعب يحتاج الى عناية جسيمة ومراقبة مستمرة غير منقطعة .

كثيراً ما يتخذ اغنياؤنا بعض احتياطات لحفظ ثروتهم من بعدهم ولكنها في الغالب لا توصل للمقصود وقد يترتب عليها اعظم ضرر للهيئة الاجتماعية مثل ان يقفوا املاكهم — كما سنبين ذلك



﴿ الوقف ونتائجه ﴾

اذا نظرنا الى القصد الاول من الوقف من حيث هو وجدناه من اجمل مزايا الشريعة الاسلامية . لان تجرّد الشخص من املاكه وتخصيصها في حياته او بعد موته لعمل خيري هو امر لا يصدر الا عن نفس طيبة وعواطف شريفة واميال بارة وفكر عال

ومقصد شرعنا الشريف من تشريع الوقف ان لا تكون حوائل بين نية الخير وعمله . فسوغ لكل انسان عنده نزعة الى الخير ان ينفذ قصده مهما كان وبأي طريقة شاء وفي اي وقت اراد

وهذه الحرية التى لم يصل الى درجتها كثير من الشرائع والقوانين الاجنبية وعلى الاخص القانون الفرنساوي قد لوحظ بلا ريب عند سنها في شريعتنا السمحاء ان تتشعب طرق الخير في ملتنا وان تعود منها الفوائد الجمة على العالم الاسلامي . ولا مراء في ان خير وجوه النفع

للمسلمين انشاء المدارس لنشر التعليم ومعالجة المرضى ومساعدة الفقراء والبائسين وما يشابه ذلك من الاعمال النافعة العمومية التي تحفظ حياة الامم وتزيد في قوتها

وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف ازمانـاً طويلة . فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التى تعطى لطلبـة العلم والفقراء ونرى آثارها العديدة او معالمها القائمة منتشرة في البلاد طولاً وعرضاً تشهد لاجدادنا (اولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) انهم كانوا رجالاً يعملون بعقل وروية لاصلاح شؤون بلادهم ومنافع امتهم

اما الان فقد صار الوقف من الاعمال الاحتياطية التي يتخذها الاغنياء ضد اولادهم . فالواقف صار اول قصد له ن يحبس المال لا لفعل الخير بل ليحول بين ورثته وبين تبديده . وهو ان كان يترك منفعته بعد انقضاء ذريته الى محل خيري فذلك لانه يرى من المناسب او الواجب عليه ان يجعل عمله مطابقاً فى الشكل لاحكام الوقف . ففكرة الخير من عمله آتية على سبيل اللزوم والتبعية . وما القصد الاول كما قدمنا الا ان يغل ايدي اولاده الذين يعلم انهم اغنياء جاهلون وفسقة مبذرون . وكأنه لا يدري ان الابناء اذا كانوا على هذه الصفة فكل احتياط معهم يذهب هباءً منثوراً

ونحن مما نشاهد ويقع بين ايدينا كل يوم يمكننا ان نحكم : هل منع الوقف شيئاً مما كان يتوقعه الواقف ؟ هل ادي الوقف الوظيفة الحقيرة التي اراد الآباء الاغنياء ان يستخدموه فيها ؟

الم تدلنا المشاهدات والتجارب كل يوم على ان الاولاد اذا لم يكن لهم رادع من انفسهم فهم بحكم الضرروة خاضعون لتأثير الشهوات المنتجة للفقر والعسرة الشديدة فيستدينون حتى يستغرق الدين ايراد الوقف في الحال والاستقبال ؟ السنا نشاهد الاملاك الموقوفة في جميع القطر شرقاً وغرباً وكيف آلت الى الخراب بسبب تنازع المستحقين وسوء ادارة النظار ؟ الم يصل الى علم الجميع ان الاملاك الموقوفة تعامل الان كما تعامل الاموال المباحة وهي مطمح مطامع الكل وكل يريد ان يختطف منها نصيباً ؟

ولئن اعترض علينا بان اكثر الاعيان الموقوفة صارت في كفالة الاوقاف فاصبحت في حرز المثل ومشمولة بادارته . فالجواب ان ديوان الاوقاف لا يمتاز على غيره من نظار الوقف الا من جهة واحدة وهي انه يفعل كبيراً ما يفعله النظار صغيراً . وان هذه المصلحة فضلاً عن سوء ادارتها الظاهرة سواء فيما يختص بتنمية ايراداتها او بطرق صرف اموالها قد فقدت اميال الامة وثقتها . لانها فوق اهمالهـا الاعمال العمومية النافعة قد تحولت عن الغرض العام الذي انشئت لاجله وهو اعطاء الحق لذويه فصارت اكبر خصم يصادفه المستحق اذا طلب حقه

ولو كان لمصر نصيب من الحظ لكانت هذه المصلحة اليوم كشجرة عالية منبسطة اغصانها الباسقة حيث يلتجيء اليها ويستظل بها فقراء الامة كلهم . او كقلب الامة الذي يخفق اذا هي حزنت او فرحت ويمد عروقها وشرايينها بالدم الذي يهبها الحياة الطيبة

فبالله كيف تصبح المصلحة الكبيرة النفع كآلة لهو في ايدينا نلعب بها ونحن نتلفها كما يتلف الطفل كل العوبة تقع في يده

ويا ليت شعري كيف يتحول استعمال الشرائع فينتج نتائج مختلفة بقدر ما يوجد من اختلاف وجوه تنفيذها ؟ وكيف ان الاخلاق تؤثر على القوانين والنظامات فتغيرها وتقلبها وتفسدها وتحول بينها و بين الوظيفة التي وضعت لادائها ؟

ولقد كنت هممت ان انصح الناس ان لا يقف احد شيئاً من ماله ولكن امل النفس تغلب على همامتها . فاذا لم يكن عندنا رجاء في اصلاح للماضي فلا شيء يمنعنا — اذا اردنا — ان ننظر الى المستقبل من ان نرد الى الوقف اعتباره الشرعي وذلك يكون بامرين :

الاول ان يخصص الواقف منذ الآن جزاً قليلا او كثيراً ليصرف من اليوم الذى يبتدئ فيه تنفيذ الوقف على مصلحة عمومية يعود نفعها على البلاد كمدرسة او كتاب او مستشفى اجزاخانه او مساعدة الفقراء الذين يشتغلون او الذين لا يستطيعون الشغل بحال . وهذا الباب الاخير واسع يقبل صرف الملايين اذا وجدت . ولكن على شرط ان تكون مساعدة الفقراء بتميز وفكر على النمط الذي نراه في اوروبا . فيمكن مثلاً تخصيص الصرف على تربية الاطفال اللقطاء او العائلات التي تفقد عائلها او بصفة مكافآت سنوية لمن يؤلف احسن كتاب في تاريخ الاسلام او يترجم عدداً من الكتب الاجنبية التي يجب نشرها في بلادنا . وهكذا

والثاني ان يعين الواقف الاشخاص الذين ينيط بهم ادارة الوقف من اهله او اصحابه او غيرهم ممن يرى فيهم الاستعداد والضمانة لتنفيذ ارادته ولكن على شرط ان لا تؤول النظارة الى ديوان الاوقاف او غيره من مصالح الحكومة باي حجة كانت ولاي سبب كان لاني اعتقد ان كل وقف تمسه يد الحكومة ليس للامة منه نصيب .

اما اذا اراد اغنياؤنا ان يتمتع اولادهم بعدهم بثروتهم فالوسيلة الوحيدة التي يجب استعمالها — مع التأكد من نجاحها — انما هي ان لا يقصروا في تربيتهم

﴿ اسباب ونتائج ﴾

٧

(كيف يصرف المال)

ان كان كسب المال صعباً فمعرفة طرق صرفه كما ينبغي ان يصرف صعبة ايضاً · لان يحتاج الى تفكر وتدبير وتحكيم عقلي وعلم تام بجميع حاجات الانسان كما يحتاج الكسب من الوسائل المتشعبة

واول شيء يجب انّ يفهمهُ صاحب المال ان المال الذي يكسبه بكده ومجاهداته ليس هو الغاية المبتغاه لذاتها · وانما هو واسطة للقيام بحاجات النفس · فكلّ ما يصرف في المحافظة على صحة الجسم ووقايته من العلل او معالجة امراض حاصلة سواء كان بتحسين التغذية او اختيار المسكن الاجود او بالرياضة من الحاجات اللازمة · وكل ما يصرف في سبل التعليم والتربية كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة

لازم ايضاً

وفي رأيي انه لا يجوز مطلقاً الاستغناء عن صرف الاموال في هذا السبيل الاخير كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذي هو قوام الحياة · فلو فرضنا رجلين لكل منهما ابن وقدرنا ان النفقات اللازمة لتربية كل منهما الف جنيه فجاد بها احد الوالدين على ابنه وضن بها الآخر قائلاً اني اجمعها في الصندوق حتى اتركها له كرأس مال بدلاً عن انفاقها في سبيل تربيته لكان الاول قائماً بالواجب عليه دون الثاني بل الاول يحسب حكيماً مقتصداً والثاني يعد مهملاً مبذراً · لان التربية هي رأس مال لا يفنى اما المال فما اقرب ضياعه وخصوصاً من يد الغبي الجاهل

وليس بلازم ان يكون الانسان غنياً ليقوم بهذه الواجبات لان التربية من ضروريات الحياة كالاكل والشرب · وكل اقتصاد فيها غير ممدوح

ومما يؤسف عليه ان الموسرين في بلادنا لا يعرفون كيف يصرف المال اذ هم في الغالب فريقان كل منهما احط من الاخر واجهل

ففريق يصرف المال ····· في ان لا يصرف منه شيئاً بل يفضل حبسه في الصندوق على كل شيء فيرضيه ان تراه دائماً قذر الثياب ساكناً في مكان لا تسمح ذمتك ان تربط فيه حمارك · منعزلاً عن الناس · جائزاً لامرأة صبور ترضى بالقليل على ان تنال يوماً — ولو بعد موته — الكثير وقد يكون له عدة اولاد يتركهم

الى التيه بلا تربية بل ولا نصيحة او موعظة حسنة او كلمة حنو . همه الوحيد في ان ماله يزيد

والفريق الآخر يصرف المال بان يلقيه بملء اليد في كل وقت وفي كل مكان

وظاهر ان كلا النوعين يصرف ماله بكيفية مضرة له وللهيئة الاجتماعية . ولو درى اغنياؤنا كيف يصرف الغربيين رجالاً ونساء اموالهم لماتوا خجلاً ان كانوا يألمون ويخجلون

نرى في كل مدينة من مدن اوربا بين عشرين ومائة محل من المحال الخيرية بحيث قد تربو وجوه مصارف الخير على عدة انواع الفقر . والحرف والفنون والعلوم التي يراد علاجها او خدمتها باعمال البر بين الناس

نشاهد تلقاء كل نوع من تلك الانواع مصارف خيرية قد خصصت لها وجميع مواردها قائم بالعطايا والوصايا التي تسديها اليها الاغنياء

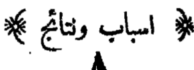
ان في اوروبا نساء وهبن في دفعة واحدة نصف مليون ومليونًا ومليونين من الفرنكات : هذه لاسبتالية يعالج بها العساكر الذين جرحوا في الحروب . وتلك للشبان المصابين بداء السل . واخرى للمخترعين الذين لا يستطيعون ان يتموا مشروعاتهم لقلة ذات ايديهم ورابعة لاول مكتشف طريقة للمواصلات بين كوكبنا وكوكب اخر . وخامسة لاحدى البنات التي تشتهر بفضيلة مخصوصة . وسادسة للعائلات التي تصاب بكثرة الاولاد على غير ميسرة . وهلم جراً

ولا يتوهمن القاريء ان هؤلاء الاغنياء الذين يهبون ويوصون بمثل هذه المقادير ليس لهم بنون واقارب · كلا بل ان جميعهم او اكثرهم من المعقبين ولكنهم يفتكرون — وهم مصيبون — ان الانسان اذا ترك لوارثه جزأ من ماله يكفيه لقضاء حاجاته المعيشية فقد فعل فوق ما يجب عليه

فلو فرضنا ان رأس مال احدهم يساوي مائة الف جنيه فاوصى بنصفه او ثلثيه الى وجه من وجوه الخير وحفظ الباقي لورثته قد وفق بين مصلحتهم الخصوصية و بين المنفعة العامة · وليس من النادر كذلك في اوربا ن يحرم شخص جميع ورثته من كل ماله و يعطيه لجمعية خيرية اذا تبين له انهم على اخلاق فاسدة

فما لنا لا نقتدي بامثال هؤلاء ونحن اولى باعمالهم منهم اذ اننا على دين من اركانه الزكاة وفيه ان اطعام المسكين كفارة للذنب

✻ اسباب ونتائج ✻



✻ التربية ✻

التربية بوجه عام هي تنمية القوى المودعة في الانسان الناطق او الحيوان الاعجم

وقد مارس الانسان وظيفة التربية لنفسه وفي كل شيء وقع تحت تصرفه حتي وصل الى نتائج تشبه المعجزات

ففي النباتات مزج الالوان وعظم الحجم وحسن النوع ونسج

هيئته التي فطر عليها · وفي الحيوانات قد استأنسها واستخدمها وعلمها واستولد من الانواع المختلفة انواعاً جديدة

ولكن اكبر شيءٍ يحق للانسان المباهاة به والافتخار بل والاعجاب والزهو هو تربيته نفسه

ولو رجعنا بالفكر القهقرى سائرين في الطريق الطويل الصعب الوعر الذي قطعه الانسان من اول خلقته وتخيلناه في ذهننا من مبدئه الى المحطة التي وصل اليها الآن اشعرنا بدوار عظيم أشبه بالدوار الذي يستولى على الدماغ ويستهوى بحواس احدنا اذا وجد نفسه بغتة على محل شاهق جداً والقى ببصره الى هاوية سحيقة كذلك ·

وقد يتيه العقل ويذهل اذا تخيل الانسان الحالة التي ينتظر ان يرقى اليها النوع البشري على القياس السابق بعد نحو الف عام او الفين لان هذا التغير والتحول بل الحركة المستمرة الى جهة الترقي هي قانون الحياة الانسانية التي خلقها الله ووهبها اعظم وسائل الارتقاء · وبهذا القانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية التي لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان افريقيا وامريكا ممن وصفهم العلماء بانهم قردة متمدنة عند ما شاهدوا ان المسافة التي بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التي بينهم وبين أناسي أمة متمدنة · حياك الله

ولو لم يقف هؤلاء العلماء على البراهين التاريخية القاطعة التي

استخرجوها من بطون الارض فاثبتت انهم آدمي لحكموا باخراج هؤلاء الاخوان التعساء من دائرة الانسانية

وها هو الانسان لم يزل يتمشى صاعداً مرتقياً متنقلاً من دور الى دور حتى وصل الى هذه المدنية الجميلة التي جعلته حقيقة سيد الكون واشرف المخلوقات وسيستمر كذلك باذن الله الى حد لا يعلمه الا هو

وهذه المرتبة العالية لم ينلها الانسان الا بتربية نفسه فلا غرو ان صارت التربية عند الامم المقدرة لما حق قدرها صاحبة المكان الاول في النفوس معتبرة اياها عماد حياتها

والتربية هي التى انتجت كل الرجال الذين نسمع عنهم ونشاهدهم متحلين بمزايا الاستقامة والصدق والكرم والشجاعة والشفقة وحب الوطن واحترام الحق والدفاع عن الحقيقة والخضوع للواجب وبذل النفس والمال في خدمة العلم والدين والجامعة الوطنية · والتربية هي التى انتجت ايضاً رجال اوربا الذين نقول عنهم عند ما يفيض اعجابنا بهم ونريد أن نسلي انفسنا بما يخفف تبكيت الضمير (انهم اخذوا كل فضائلهم عنا وعن ديننا وعملوا به) · وهي التسلية التى حقها ان يكون وخزها في القلوب اشد من طعن ألاسنة والرماح او هي كما يقول المثل « عذر اقبح من الذنب »

ولقد فعل المصريون شيئاً يذكر فيما يختص بتعليم ابنائهم بعد ان كان لا يمكن ادخال ابنائهم في المدارس الا بالقوة والارهاب من عهد

ليس ببعيد صرنا نراهم الان يسعون وراء التعليم مجتهدين في ادخال ابنائهم المدارس مجاناً او بمصاريف بل ويتظلمون من ان الحكومة لم تفعل كل ما يجب عليها • وقصارى منيتهم التي يسهل استنباطها من اقوالهم وشكاويهم ان تفتح الحكومة في كل مديرية وفي كل محافظة مدرسة طويلة عريضة فسيحة الارجاء تسع كل ابناء سكانها • وربما لا يكتفون بذلك فيأملون ايضاً ان تعطيهم بلا منة عليهم الملبس • ولا بأس من ان تعطيهم فضلا منها بعض نقود ليصرفوها على انفسهم في فسح ايام الجمعة وثمناً للدخان الذي يشربونه

ثم اذا اتموا دراستهم بدون عطل ولا تدقيق زائد في الامتحانات كان على الحكومة ان تمنحهم الوظائف العالية فالرتب والنياشين حتى اذا مات احدهم فعلت مثل ذلك مع ابنائهم • واذا ناقشتهم في مطالبهم هذه رأيتهم مقتنعين بان الحكومة اذا فعلت ذلك كله كانت قائمة بالواجب عليها فقط وانه ليس فيما يطلبون شيء خارج عن حد الاعتدال ولا فوق المستطاع ولا ما يزيد عن الواجب وليت شعري لماذا لا يطلبون مع ذلك من الحكومة ان تتكفل بتزويج بناتهم حتى لا يبقى عليهم حملٌ ثقيل بعد ذلك

ومن الاسف ان المصري لا يزال يظن ان تربية الطفل عبارة عن وضعه في المدرسة وانه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه : مع ان التعليم هو في الحقيقة اقل فروع التربية شأناً وفائدة

نعم انه قد يكون من النافع ان الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة والفلسفة اذا شئت · ولو اني اعتقد ان التعليم النظري لا يفيد الغلام فائدة محسوسة خصوصاً اذا كان في السن الذي يتلقى فيه العلوم العالية

ولكن يجب ان الآباء يعلمون ان التعليم وحده لا يفيد شيئاً اذا لم يكن مصحوباً بتربية قوية · وان الجرعات العلمية التي يبتلعها الغلام من سن السابعة من عمره الى سن العشرين ليس فيها الغذاء اللازم لتكوين روحه · اذ هذه الجرعات اشبه شيء بالحبوب المذهبة التي ينشر عنها مخترعوها الاعلانات المشوقة في الجرائد حيث ينسبون لها جميع المزايا الصالحة لشفاء جميع الامراض وليس فيها في الحقيقة ونفس الامر الا مزية واحدة : هي انها لا تضر

اما تربية الروح فانها تكون بتعويد الطفل لا على ان يفهم هذا الطيب طيباً وذاك الخبيث خبيثاً · بل على ان يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع · لان ادراك الحسن حسناً والقبيح قبيحاً امر سهل وقد لا يكاد يوجد انسان يفعل امراً مذموماً وهو يعتقد انه ممدوح · فالسارق والقاتل والخائن والبخيل كلهم يفهمون ان ما يرتكبونه رذيلة من الرذائل · ولكنهم تعودوا استعمالها كما تعودوا ان يجفوا الفضائل

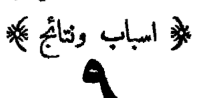
فالتمييز بين الفضيلة والرذيله ليس بالشيء المهم في فن التربية ولكن كله ينحصر في اكتشاف واظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة

المخلوقة فينا او غرسها في نفوسنا وتقويتها واحيائهـا حتى تمسك في النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك ابداً · ومتى وجدت التربية بهذا المعنى لازمت النفس الفضائل وتجافت الرذائل بقدر ذلك الملازمة

وبديهي ان التربية بهذا المعنى لا يمكن ان تكتسب في المدارس والمكاتب او من قراءة وحفظ قواعد علمية · بل تجب ممارستهـا مع الطفل من يوم يعي الخطاب ويفهم الكلام بل وقبل ذلك كما سنبينه بالبرهان واول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة والذين يؤثرون عليه باعمالهم واقوالهم وسلوكهم · ثم اذا اضفنا الى ذلك ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر والعقل والحنو والمحبة الخالصة حكمنا بانها لا تتم الا بواسطة من انتخبتهم الفطرة الالهية — او كما يسميها بعضهم الطبيعة — لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان

فاصلاح الانسان لا يكون الا بالتربية والتربية لا تكون الا بالعائلة · ولهذا اعتبرت العائلة اساس كل جامعة

﴿ اسباب ونتائج ﴾



(التربية ايضاً)

قال احد الفلاسفة « لو عهدت الى تربية النوع الانساني لقومت كل اعوجاج فيه حتى يصبح ولا عيب في خلق من اخلاقه »

ومغزى هذه العبارة الجوهري ان التربية تصلح كل اخلاق الانسان وتجعله — اذا تمت فيه على ما ينبغي — قوياً منزهاً عن العيوب والنقائص التي تلاحظ الآن في مجموع النوع الانساني · وليس في هذه الدعوى ادنى مبالغة بل هي الحقيقة التي لا ريب فيها

اما النسق اللفظي لتلك الحكمة الباهرة فهو مبالغ فيه لا محالة لان الشخص الواحد لا يمكنه ان يتولى تربية شخص مثله من جميع اطرافها في جميع اطواره بل في مثل هذا المقام يظهر عجز الانسان الضعيف وتتجلى قدرة الله في خلقه حيث جعل الكل عوناً للكل

وبيان ذلك ان التربية لا يمكن ان تنتج في الامم بل ولا في الاشخاص نتائج سريعة الى مثل هذا الحد الذي يرمي اليه ظاهر لفظ ذلك الحكيم الفيلسوف · وان التقدم الادبي والارتقاء العقلي لا يخلقان من العدم البحت الى مظهر الوجود الكلي مرة واحدة بل المشاهد عكس ذلك حيث سير التقدم بطيء غير محسوس يكاد لا تشعر به الامة التي يزورها · وقد يحتاج لرسوخه في النفوس والعقول لمدة اعصر متوالية فيترك كل عصر الى ما يليه تركته ويرث الخلف من السلف كل مملوكاته التي ورثها من اسلافه والتي اكتسبها بجده الذاتي

وهذا ما يسمى عند علماء الطبيعة بقانون الوراثة : ذلك القانون الذي لا يزال تطبيقه سراً غامضاً يجعل جميع الاعصر متضامنة مع بعضها تضامناً مفيداً او مضراً حسب اختلاف اخلاق اهل كل عصر

ومن البديهي ان الانسان كما يرث عن والديه وامته وجنسه

الصفات الجثمانية التي امتازوا بها يرث كذلك من هاته العناصر كلها القوى العقلية والادبية التي تكون مختصة بها

ولهذا لا يستطاع ان نطلب من التربية ان تفعل ما يفعله السحر الذى يقلب العصا حية . فان تحويل الامة دفعة واحدة من التوحش الى التمدن لا يقل عن قلب العصا حية تسعى

وحسب التربية شرفاً وفضلا انها هي الوسيلة التي تمكن الامة من لارتقاء فوق اعلى منصات المدنية والحضارة اذا لازمتها وراعت التحرز والاحتياط وتبعت الجد وابتعدت عن الطيش فلم تنقل رجلاً من مكانها صعوداً الا بعد ان تثبت الاخرى على الدرجة التى فوقها . والا عرضت نفسها الى خطر الانزلاق والسقوط واضطرت بعد ذلك ان تعاد الصعود وتكرره فيضيع الوقت بين صعود وحبوط وتقدم وتأخر

وقد اختلف العلماء في كيفية وضع قواعد التربية واتى كل منهم بمذهب على ما رأى وليس محل بيان تلك المذاهب هذا المقام اذ الاطلاع عليها سهل لكل من اراد ولكن كلها مجمع على لزوم البدء في التربية منذ يستهل الطفل ويلتمس رضاع لبن امه ولا غاية للتربية الا بالموت اذ الانسان محتاج لها حتى يفارق الحياة الدنيا

ويلزم ان يكون البادىء في مباشرة التربية الوالدين حتى يبلغ الطفل رشده او بعبارة اخرى حتى يكون رجلاً مستقلاً بنفسه ثم هو يتولى تربية اخلاقه وتقويم ما يجده فيها من اعوجاج

ولكن من البديهي ان اصلح ضروب التربية انما هو ما يلازم

الطفل في مهده . فان اكبر عيوبنا يستولى علينا ونحن اطفال وهو الامر الذي اغفله الوالدان عندنا بالمرة . وكثيراً ما يتركون اولادهم يلعبون بتعذيب الحيوانات او يضربون خدمهم او يشتمونهم باقبح الفاظ السباب والشتائم وهم يضحكون انبساطاً من هذا الانسان الصغير الذي يقدر على هذه الكبائر . وكثيراً ما يعجب الوالدون باولادهم اذا اخترعوا واقعة كاذبة او استعملوا حيلة لحصولهم على فائدة او لتملصهم من ذنب وقد يصيحون قائلين : ما انبه هذا الصبي وما اشد ذكاءه

وكثيراً ما يضرب الوالدون اولادهم ضربا مؤلماً لغرض تأديبهم او يخاطبونهم بالعنف والتهديد وغليظ الصوت الذي يلقي الفزع والرعب في قلوبهم : مع ان هذه الاعمال كلها هي البذور التي تنتج في المستقبل نبات القسوة والحمق والخيانة والجبن والنذالة

واغلب الوالدين عندنا يساعدون على غرس وتنمية العيوب في الاطفال . وقد يعتبرون الطفل كألعوبة وهبها الله اياهم ليقضوا بها اوقاتهم في الفرح والسرور والضحك فلا يفكرون الا في ترويح نفوسهم به حتى اذا ما كبر الطفل وبلغ سبع سنين ولم يبق صالحاً لتسليتهم بأقواله وحركاته هجروه وابعدوه وطردوه يلعب في الطرقات مع اولاد الحارة او يقعد على الباب مع الاتباع والخدم فيرتبط الطفل بهم وتتكون علاقة بين نفسه ونفوسهم وروحه وارواحهم ويأخذ منهم اضعاف ما يأخذ من اهله فيشب على عادات رديئة واخلاق رزيلة تبقى معه ما دام حياً .

وحسب كل منا ان يمعن النظر في اخلاق نفسه فلا يصعب عليه

ان يكتشف عيوبا نشأت فيه وشب عليها من الصغر ولو حاول يوماً ما ان ينزع نفسه منها و يتجرد عنها بالكلية لوجد شخصه عاجزاً عن ذلك تمام العجز . وقصارى ما يصل اليه جهد الانسان ان يلطف هـذه العيوب قليلا . بمعنى انه اذا وضع الواحد منا عيبه نصب عينيه وحاذر من الوقوع فيه كفى شره بالاجتناب عنه ما دام يقظاً محاذراً . ولكن استمرار الحذر غير متيسر في كل وقت لكل احد فاذا ذهل ذلك المحاذر عن عيبه سويعة من الزمان واشتغل بأمر آخر فلا يشعر الا وهو مغمور في ذلك العيب الى رقبته ولهذا كان المثل المصري الشائع « الطبع والروح في جسد » من احكم الامثال واصدقها

لهذا تجب ملاحظة الطفل في كل اعماله وحركاته واقواله ملاحظة مستمرة حتى لا تلتصق به عادة رديئة ويجب على الخصوص اجتناب الاعمال القبيحة امامه . لان المثل يعدى خصوصاً مع الاطفال

ولا ينتظر لمباشرة التربية ان يتعقل الطفل الاشياء ويفهم المعاني ويعي ما يقال له . بل يجب الشروع فيها من اول ولادته بتعويده على انتظام الغذاء والنوم والنظافة وعدم البكاء . بل قد تطرف فريق من العلماء فجعل مبدأ زمن التربية من بدء ظهور الحمل في بطن امه . وهذا الرأي مع ما فيه من الغرابة ليس ملقى على عواهنهِ او خالياً من الصواب لاننا نشاهد ان الام تؤثر على ولدها تأثيرات مادية لا يمكن انكارها فترى في بعض الاحيان عند ما يولد الطفل آثار ظاهرة في جسمه يكون سببها الوحيد تأثر الام اثناء مدة الحمل بحادث مخصوص هيج احساسها

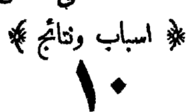
الى الرغبة في الشيء او النفور منه

وتوجد مشاهدات كثيرة تدل كذلك على ان الامهات اذا طرأ عليهن في مدة الحمل فزع شديد او كدر عظيم او شهوة قوية اثرت هذه الحوادث على اخلاق اولادهم واورثتهم الشراسة او الحمق او العناد او التهور في الاقوال والاعمال

فليس اذن من المستحيل ان نعتبر بقاء الام مدة الحمل على حالة اعتيادية واجتنابها كل ما من شأنه ان يثير عواطفها ويهيج حواسها من اول الحقوق التي يكتسبها الطفل عن والدته واول الوجبات التي تفرضها عليها تربيته

وعلى كل حال فان تأثير الوالدين وعلى الخصوص الامهات في تربية الطفل امر ثابت ونتيجته تكون مفيدة لسعادة الطفل ان راعى الوالدان الذمة واخلصا النصيحة الصادقة في تربية اولادهم وتكون ضارة وسبباً في كل شقائه ان كانا على عكس ذلك

﴿ اسباب ونتائج ﴾



(اصول التربية)

ونعني بالاصل هنا الأس الذي يشيد عليه البناء قائماً ثابتاً لان كل نفس صنعتها تربية حسنة تكون قائمة على قواعد متينة تحفظها من السقوط في مهاوي التلف وتمكنها من مقاومة عواصف الشهوات والحوادث التي لا بد من مصادفتها في الحياة · ومن الاسف اننا اذا نظرنا الى

نفوسنا وجدنا تربيتنا كبناء على شفا جرف هار

واول اساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو الاساس الديني فالدين للانسان هو الشيء الوحيد الذي يمثل بين يدي كل نفس صورة الكمال الحقيقي . وغرس بذور محبة الدين في نفس الطفل يجعل وجهته في كل حركاته وسكناته نحو الكمال في كل شيء ويخلق عنده رغبة كاملة في كل ما يراه جميلاً

وليس في الحياة وقت احلى والذ على النفس من ان الانسان يجرد نفسه سويعة من الزمان من كل ما يحيط به من عالم الكون الذي هو فيه ويذهل عما فيه القبائح والمظالم والمصائب بل ومن الافراح التي لا تخلو دائماً من شائبة كدر تمازجها او تتبعها . تلك الافراح الكاذبة الغاشة كما تغش التفاحة بهيئتها النضرة ظاهراً وقلبها مسكن الديدان فاذا جردها كما تقدم وقلب وجهه في السماء زمناً خاشعاً ساكناً حيران راجياً ناسياً كل شيء حتى ذاته — ثم رجع بعد ذلك الى نفسه وجدها شيئاً تافهاً حقيراً ناقصاً فتميل روحه اذ ذاك الى الترفع عن الاشياء المادية والتنزه عن الدنايا والشهوات ويرى نفسه ساعتئذٍ عالقة بمحبة الكمال في كل شيء

نتج من هذا انه اذا تعود الطفل عندنا على محبة دينه — وهو دين قويم على كل الكمالات — ثم غذى بتاريخ الاسلام وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح وبالجملة كل الرجال الذين اشتهروا بالكمالات من المسلمين ودأب اهله على محادثته

بامثلة ذلك التاريخ الشريف واضعين بين عينيه الكتب التي تشتمل على هذه الفضائل بدلاً من قصص ابو زيد والزناتي وحكايات الجن والعفاريت . فلا ريب ان الطفل يشب على اخلاق كريمة فيصبح بعد ذلك رجلاً له في جانب عقله روح كبيرة ونفس مترفعة عن الدنايا واحساس عال قوي : وكلها عناصر لا يكون الرجل بدونها انساناً بل ولا رجلاً

ونحن والأسفاه نكاد نكون مجردين عن الاحساس الديني الذي يودع في الشخص تلك الكمالات ويربيها . ولست أتكلم عن ابناء المدارس فقط بل وعن طلبة العلم الذين قصروا تعلمهم على ما يأتي في الجامع الازهر الشريف من العلوم الدينية وما يتبعها . وامثالهم . لان هؤلاء قد تعودوا ان يتلقوا احكام الشريعة كعلم يجب حفظه في الذهن مهملين مع ذلك كل ما ينتج تولد الاحساس الديني الحقيقي وتنميته

وعلى عكس ذلك نرى الاوربيين . فانهم وان كانوا اقل من المسلمين معرفة بامور دينهم ولم يعتادوا الاشتغال بدراسته مثلنا لكنهم على الدوام يظهرون في اقوالهم واعمالهم احتراماً شديداً لكل ما يختص بدينهم واحترازاً عظيماً عن كل ما يمسه ولو أقل مساس

وكلهم يرونه عنوان المدنية ومنبع الآداب والوسيلة الوحيدة لتهذيب النفوس . وربما كان أقلهم اعتقاداً في صحته اكثرهم احساساً بمحبته واحتراماً له

والاساس الثاني للتربية هو الاحساس الوطني · وهو يتولد كذلك عند الطفل من الحديث والقراءة والاحاطة بكل ما يعلي شأن الوطن وما يسقطه وتعويده على النظر اليه كشيء محترم جليل مقدس وتفهيمه بانه وحده ليس لعمله قيمة ولا لوجوده اعتبار ذاتي · وانه بانضمامه لامته يكوّن قوة عظيمة · وان منفعة الانسان صغيرة زائلة ومنفعة الامة كبيرة راسخة · وانه يجب علينا ان نعمل لمن يخلفنا في وطننا مثل الذي عمله اسلافنا لنا

تأمل ايها القارىء برهة ترَ ان بلادنا مثلاً ما وجدت في الدنيا بالحالة التي هي عليها الآن · بل ان كل ما تراه فيها نتيجة اعمال ألوف من القرون كل قرن يتلقى من سابقه ما تركه ناقصاً فيتمه ويهيء غيره الى خالفه سواء كان في الزراعة او الصناعة او المباني او العلوم او اللغة او الكتابة او الشرائع او التوسع في الفتوحات او المحافظة على الامن داخلاً وخارجاً · فان كنا اليوم نتمتع بهذه المزايا فعلينا ان نشكر آباءنا وان لا ننسى ان سيخلفنا خلف لهم علينا حقوق ولنا عليهم واجبات كما كان بيننا وبين آبائنا سواء بسواء · والوطن هو الذي يمثل للذهن هذه السلسلة مرتبطاً بعضها ببعض ولسنا الا حلقة فيها

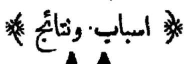
اما الاساس الثالث فهو مراقبة الوازع النفسي او ما يسميه بعضهم تنمية الضمير · و يسميه الاوروبيون المحكمة الباطنية التي يحاكم الانسان نفسه امامها

وقد يظهر ان رجوع الانسان الى نفسه بهذه الطريقة امر فطري الا انه ليس هذا صحيحاً الا عندما يقع في عمل يوجب التبعة والمسئولية اذ في ذلك الوقت يكون حكم الضمير قوياً صارماً فيعرف الانسان انه مذنب ومقصر ويندم على فعله

ولكن أي الناس يحاسبون نفوسهم على اعمالهم اليومية؟ اي الناس يستعملون الذمة مع اولادهم وازواجهم واقاربهم واصحابهم وخادميهم ومن يتعاملون معهم بالبيع والشراء والاجارة وغير ذلك؟ بل نرى ونشاهد اكثر الناس مشغولين بمراقبة اعمال غيرهم حاكمين عليها اشد الاحكام وكأنما هم لم يخطر على بالهم ان يراقبوا اعمالهم لحظة واحدة ولا ان يحكموا على انفسهم ولو بمنتهى الحنان والشفقة يوماً واحداً

ولهذا يجب تعويد الطفل من الصغر على ان يتداول مع نفسه ويختار ويحكم ويحاسب ذاته امام ضميره

﴿ اسباب ونتائج ﴾



عيوب تربيتنا « حب النفس »

حب النفس فطرة في كل انسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس . وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية بل هو خلق وجد مع الانسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه

ولما كان الانسان في حالته الفطرية الاولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات

التي تنازعه في معيشته بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذي يتبعه في سلوكه فلا يتأخر عن فعل امر يعود عليه او يجلب له لذة ولو كان قبيحاً او فيه شر للناس

ولكن منذ اليوم الذي ابتدأ الانسان فيه أن يعيش في جامعة من ابناء جنسه متضامنة في وسائل الحياة آخذ الشعور بحب الذات يتناقص عند كل فرد من افراد هذه الجامعة لما تحققه من ان حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده بل هو من وظيفة جميع اعضاء العائلة التى هو منها . فالقبيلة التى تشمله . فالحكومة التي ترعاه

ومن ذلك اليوم وجد في جانب هذا الواجب الذي تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها في ان لا يعمل فرد منها عملا يعود عليها او على عضو منها بالضرر . ومع التقدم رويداً رويداً في نظام الاجتماع صار كل عضو من الامة يتمتع باعمال كل اعضائها وينتفع من افكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء . وعلى ذلك صارت الحقوق والواجبات متشيعة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد منا اليوم مرتبطاً باهل بلده ارتباطاً شديداً لا يمكن ان اشبهه باحسن مما يعبر عنه المتشرعون في اصطلاحهم بارتباط التعهدات المتضامنة

نعم ان حب النفس لا يزال في فطرة كل انسان بل انه لا يزال اشد الاحساسات الطبيعية والزمها للنفس حتى يخيل لاحدنا ان كل حب سواه كالعشق او محبة البنين او الصديق او المال لم يخرج في

الحقيقـة عن كونه شعبة من حب الانسان لنفسه بالواسطة بمعنى ان الانسان يحب نفسه في كل انسان وفي كل شيء يميل اليه . لكن لا ريب في ان الدين والتربية والتأديب قد اثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعي حتى اضعفه او على الاقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة . وهي ممنوعة اذا كانت بعكس ذلك . وضرر الغير تعينه الشرائع وآداب كل امة

والتربية الحسنة النافعة انما تظهر في اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس في آن واحد. وفي الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم في تحقيق آماله لان العمل اذا كان يحتوي على منفعة عمومية رضي به الناس اجمعون وعضدوا عامله باقوالهم واعمالهم. وهذا التعضيد يساعد العامل ولا شك في تنفيذ ما اراد وتحقيق ما قصد. واذا تأملنا في تاريخ الرجال المشهورين الذين صارت لهم المكانة العظمى في التاريخ كبسمارك وغلادستون وغامبتا لم نجدهم مجردين عن احساس حب النفس بل بالعكس ربمـا كانوا اشد الناس حباً لنفسهم لكنهم عرفوا كيف ينتخبون مطالبهم الذاتية موافقة للمصالح العمومية وتسنى لهم بذلك ان يخلطوا بين منافعهم الشخصية ومنافع اوطانهم فجعلوا المنفعتين واحدة غير متجزئة حتى اذا استمروا على هذه الخطة زمناً صار من الصعب على الناس وعليهم ايضاً ان يميزوا الحد الفاصل بين المنفعتين. وهذا ما حدا باهل بلادهم ان يقيموا لهم التماثيل لتخليد ذكراهم اعلانا لرضاهم عنهم

وارتياحهم من اعمالهم

ولكن من الاسف نرى اهل بلادنا قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس في تربية اولادهم فنشئوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة في انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير · فهم يتهافتون على العمل النافع لهم اذا كان فيه اضرار بالمصلحة العامة · وقد لا يقبلون عليه اذا تجرد عن ذلك

فالموظف المصري يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقاً واحداً وهو الشغل

والفرد من الاهالي لا يستعين في طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات وبجميع اعمال الزور حتى ضد اقرب الناس اليه

وهذه الحالة التى تمثل اكبر عيب فينا هي ايضاً نتيجة الحكومات الاستبدادية الماضية لان الاستبداد اصل كل فساد في الاخلاق · وقد اهملناه في تربيتنا فنما هذا النبات الخبيث نمواً شديداً حتى ضعضع كل ما يوجد في جانبه من احساس شريف وعاطفة بشرية وارتباط اجتماعي · وعلى الخصوص ارتباط عائلي

وها نحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الاخر بدون ان يمتزج به الا امتزاجاً سطحياً · كل منا سائر في طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر اقل ارتباط : مع اننا نرى غيرنا على خلاف هذه الاخلاق

نرى الامة المكونة من اربعين مليوناً من النفوس مثلا كل افرادها على قلب رجل واحد · اذا ذكر اسم الوطن الفيت هذا المجموع العظيم

مؤلفاً من جمعيات سياسية وجمعيات علمية واخرى فنية وهكذا يقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون · بل ترى لكل نوع من انواع الرياضة كركوب الخيل والمصارعة ولعب الكرة والسباحة وما اشبه جمعية مخصوصة · ترى حب الاجتماع في كل شيء وفي كل انسان حتي اذا لم يبق شيء يكون موضوعاً للاجتماع اجتمعوا لمجرد التشابه في الجسم كالجمعية التي انشئت من سنتين في باريس لكل من يزيد وزنه عن مائة كيلو · او للتشابه في الاميال كجمعية العذاب

وظاهر ان هذه الامور هي اسباب للاجتماع فقط واما الغاية الاصلية فهي الاجتماع

ولهذا يلزم تعويد اطفالنا علي الاجتماع بامثالهم كما يفعل الغربيون حتى اذ شبوا علي ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية الي انحلال اجزائنا والاضرار بجامعتنا كما هو الان

﴿ اسباب ونتائج ﴾

١٢

عيوب تربيتنا « الكسل »

ان لكل امة عيباً مشهوراً تعرفه في نفسها كما يعرفها به الاجانب وعيبنا الكبير الذي يشاهد بوجه التقريب عاما بيننا ويكاد لا يخلو منه احد وان كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل

نعم نحن كسالى في اعمالنا وفي اقوالنا وفي افكارنا وفي رياضتنا ·

نحن كسالى في جميع اطوار الحياة ومظاهرها · نحن كسالى في الجد وكسالى في الهزل وكسالى امام المصائب وامام الافراح وتلقاء النافع وازاء الضار

نحن كسالى في الصباح وفي المساء · نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى · ونعيش بين هذين الوقتين كسالى

انظر في تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوأ بالاكل والشرب والنوم ورواية القصص القديمة والنوادر المضحكة والتنكيت والضحك الصناعي والاقوال الفارغة والالفاظ التي معانيها غامضة او ظاهرة نصف ظهور · وقد لا تجد في صحيفة واحدة من صحف احدنا عملاً يذكر

وليس المقصود ان نعمل ما فوق الطاقة او ان نأتي بالعجائب والغرائب بل نقول اننا لا نعمل الاعمال العادية التي بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل ·

فمن لوازم الجسم ان يصرف في كل يوم مقدار من القوة بتحريك الاعضاء وتمرينها سواء كان ذلك بالمشي او الركوب او اللعب او الشغل والا سقط في الهزال والضعف الموروثين للكسل

وكذلك العقل يقع في مهوات الكسل اذا لم تتوارد عليه صور اشياء شتى لان المخ هو في الحقيقة مخزن واسع تأوى اليه الصور التي تتكون بواسطة حواسنا حيث الاجهزة العصبية للنظر والسمع والشم والذوق واللمس هي الينابيع التي يستمد منها المخ مادته وتتكون منها وظيفة التفكر وتتألف بها اجزاء المعاني· فان كانت الاحساسات متوفرة

متنوعة كان العقل كبيراً . وان كانت قليلة كان صغيراً

والارتقاء العقلي لا يكون الا بتوارد احساسات جديدة من شأنها تحريك الصور القديمة والاضافة اليها ووضع المخ في حالة التنبه التي بدونها لا يتأتى ان يؤدى وظيفته وهي توليد المعاني وانتزاعها من بين تلك الصور

ونشاط الجسم والعقل يتعلق ببنية الشخص وتربيته . ونحن لا يكاد لنا سلطان على البنية ولكن لنا سلطان قوي او ما يقرب من ذلك على التربية . فان كانت البنية سليمة امكننا ان نحافظ على صحة الجسم بالتمرينات والاشغال المادية التي تبعد عن الكسل . وان نحافظ ايضاً على نشاط العقل بالتعويد على التفكر والتأمل والمطالعة كل يوم. واذا نشأ الطفل على هذه العادة فلن يتركها

ونحن معاشر المصريين قد اهملنا تربية الجسم وتربية العقل معاً. اما الاولى فلاننا لم نعتد من الصغر على التمرينات التي يستعملها الغربيون . واما الثانية فاننا لا نحسب الا انه يلزمنا الاجتهاد حتى نحصل على شهادة تفتح لنا ابواب الوظائف حتي اذا بلغنا هذه الامنية لم يبق علينا بعد ذلك شيء آخر

يقول الاوربيون كثيراً ان المصري من السنة السابعة من عمره الى سن العشرين يضاهي الاوروبي في الفهم والحفظ والنشاط ولكنه بعد ذلك يأخذ في التقهقر شيئاً فشيئاً حتى ينسى ما تعلمه و يسقط في مهواة الجهالة والخمول التي فيها جنسه

وهذا الرأي مهما كان قاسياً بالنسبة لنا فهو صحيح من جهة وباطل من جهة اخرى . اما بطلانه فلانهم يريدون ان يحكموا على الجنس المصري باجمعه في الحال والماضي والمستقبل بانه غير قابل للارتقاء لوجود عاهة طبيعية اختلفوا في تشخيصها . وهو زعم لا دليل عليه بل التاريخ اعظم شاهد على بطلانه

واما كونه صحيحاً فلان المشاهد ان المصرى لما يكون في زمن التعليم يستفيد كثيراً منه . وفي بعض الاحيان يفوق التلامذة اقرانه من الاجناس الاخرى . بل كثيراً ما نبغ التلميذ المصري هنا وفي اوروبا و برهن على ذكاء متوقد . ولكنه متى اتم دروسه واخذ شهادته وانخرط في سلك موظفي الحكومة طوى الكتب وهجر العلم وظن ان زمن التعلم قد انقضى وانه لم يبق مستعداً ومتهيئاً الا لان ينال وظائف سامية ومرتبات فائقة . فاذا مضي عليه زمن يسير وهو على هذه الحالة ضاعت القواعد التى كانت تملأ ذهنه وتبخر علمه وطار في الهواء ولم تبق لديه الا كليات يظنها معاني وقطع من جمل واجزاء من عبارات واصطلاحات محرفة تكفيه اذا نطق ان يوصف بالجهالة ويرمق بعين لازدراء والاحتقار

وعلى عكس هذا القياس نرى غيرنا من الامم الاخرى فان المتخرجين من معاهد التعليم فيها يجهدون انفسهم بعد انتهاء دراسة التلمذة اضعاف ما كانوا علية زمنها فيتقنون بذلك الفرع من العلم او الفن الذى اختصوا به دائبين على البحث فيه متطلعين الى ما

يقال او يكتب فيه · لانهم يعلمون ان العلم لا يقف عند حد وانه دائماً في تبدل او تقدم

﴿ اسباب ونتائج ﴾

١٣

عيوب تربيتنا « احساس الاحترام »

أحساس الاحترام هو علك التربية فكلما كان نامياً في امة كانت تربيتها جيدة واذا فقد فقد كان فقدانه انذاراً بانحلال جامعتها وسقوط ابهتها وعظمتها

وان اهم شيء يحفظ الامم ويزيد في رفعة شأنها هو احترام جملة امورها الجوهريه الاساسية مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف او جميل او نافع

واذا كان هذا الاحترام عاماً عند الجميع وشاملاً لجميعها كان دليلاً على قوة تربية الامة حيث لا يجرأ على مخالفة هـذا التيار القوي الا نفر قليل

ونحن معاشر المصريين ويا للاسف لا نحترم وطننا ولا نعرفه وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الاجانب الذين لا يمكن ان يعرفوه كوطن لهم بحال من الاحوال وفاتنا ان كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا · حتى ان كلمة (فلاح) التي كان الاتراك يستعملونها في مقام الذم عندمـا كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصري اتخذها المصريون عنواناً على احتقار

بعضهم بعضاً.

ومن هذا القبيل ايضاً نرى بعض الاشخاص الذين ولدوا في هذه الديار من آباء ولدوا فيها بعدمـا ترك اجدادهم بلادهم ولم يبقَ لهم أمل في العودة اليها يجتهدون دائمًا ان يثبتوا انهم من اصل تركي او سوري او عربي ولا يكادون يعترفون — وخصوصاً امام الاجانب — انهم من ابناء البلاد التي يرتعون في خيراتها و يعيشون من نعيمها

و بديهي ان المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر احد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه

وانا لا اقول انه لا توجد في الامة المصرية عيوب كبيرة قل ان يوجد مثلها في امة أخرى . ولا انه لا يباح للمصري ان يذكرها ونشر هذه الجمل في هذه الجريدة يدل على عكس ذلك وعلى وجوب انتقاد عيوبنا بنفسنا وعدم اخفاء شيء منها حتى لا نغفل عن تلافيها اذ ذلك اولى من ان يلقيها يوماً ما في وجهنا عدو لنا — ولكن اقول انه لا يباح لانسان يحترم نفسه ان يخجل من وطنه ولا ان يغضب عليه الا كما يغضب الولد من ابيه غضباً ممزوجاً بالاسف والحنو

اما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً في نفوسنا لا في الماضي ولا في الحال . اذ في الماضي كان المصريون يخشونها و يرهبونها اشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة. واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة انقلب الخوف بناء على حركة رد فعل طبيعي وبمحرضات

أخرى الى استخفاف . وكلاهما بعيد عن الاحترام الذى يلزم ان يكون متبادلاً بين الهيئتين الحاكمة والمحكومة

فاذا توفر هذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها الى راحة الامة والاعتناء بسماع ندائها وتنفيذ رغباتها كما ينبغي وبحسب الامكان . ومن جهة الامة بان تثق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التي تراها لازمة لها وتغيير القوانين التي تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر اعمالهم حق قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم ان اخطأوا وتشجعهم على الاستمرار في الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاماً لهم كان ذلك من اهم اسباب سعادة الامة

والعائلة — يلزم ان يكون اساسها الاحترام . ونحن مع الاسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس . فليس بالنادر ان يتزوج الرجل امرأة وتلد لهُ اولاداً ثم يتركها واولادها ويتزوج سواها وقد يترك هـذه حاملاً ليأخذ غيرها كذلك . وهكذا يقضي حياته في تشييد بناء عائلات وهدمها بدون ان يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته واولاده لانه لم يفكر الا في لذة دنيئة لا تذكر في جانب الاضرار التي تنجم عنها .

وان اهم الاسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق — وهو ابغض وجوه الحلال الى الله — وقد اعتاد اهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة

جداً لا يمكن ان يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل

نعم ان شريعتنا الغراء جعلت بقاء العصمة بين الزوجين على مبدأ الحرية فكان الرجل مالكاً لامر الطلاق وهو حر فيه . ولكن هذه الحرية ما اعتبرت مبدأ له الا لانه ليس في الوسع حصر الاسباب التي تستدعي حل رباط الزوجية وعلى الخصوص حتى لا يكون الرجل ملزماً بالافصاح عن هذه الاسباب . وحاشا ان تقصد شريعتنا الشريفة تسهيل قضاء الشهوة البهيمية على الشرهين فيها ليشغلوا انفسهم بالتمتع بالنساء واحدة عقب الاخرى ويتركوا اولادهم هملاً شرداً في الطرقات بلا مأوى ولا نفقة ولا تربية

واقبح شيء شائن في اخلاقنا هو اعتياد الازواج على الحلف بالطلاق كلما نوقشوا في شيء حتى فيما لا علاقة لهُ بالزوجية على الاطلاق . ولو اقتفينا اثر رجل من اصحاب هذه العادة الذميمة يوماً من الايام واردنا حصر اعداد الطلاق في الايمان الكاذبة التي يلفظونها بهذه الطريقة السخيفة لوجدناها تفوق حد النصاب الشرعي تكعيباً وجذراً ثم جذراً وتكعيباً وهكذا . وهو ما ينبغي ان يستدعي التفات الحكومة والعائلة معاً الى هذا الامر المهم الذي له اعظم مساس بالهيئة الاجتماعية

فعلى الآباء ان يحترموا انفسهم امام اولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب ان تكون لا كما هي الآن : ميدان يتخاصم فيه

الاهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون

ونحن كذلك مجردون عن احساس الاحترام للعلم والفضيلة ولذلك لا تميز في المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة بل في بعض الاحيان قد يكون احترامنا للثاني اكثر من الاول

على ان المدنية الصحيحة تعتبر اكبر مكافأة لمن عمل عملاً صالحاً ان يحترمه الناس ٠ واكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث ان يحتقروه

ولا يمكن ان تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها والرذيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا احس الناس بقوة حكم الرأي العام وسلامته ٠ ولا يوجد شيء يبرهن على فساد اخلاق الامة اكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها ٠ اذ لا شيء اقرب للفضيلة من احترام الفضيلة

وكأننا نحن لا نريد ان نعترف لاحد منا بالفضل ٠ نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم واعمالهم ٠ ونرى شبابنا يهزؤون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم — ان كانوا من اصحابها — ويزاحمونهم بالاقوال والاعمال ولا يتأخرون عن ان يتسوروا اكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم

﴿ اسباب ونتائج ﴾

١٤

« الامهات والتربية »

اذا كان للأم المحل الاول في التربية كما بينا فهل يصح ان تكون هي نفسها مجردة من كل حلي التربية ؟

واني ليؤلمني ان اكتب حرفاً واحداً ليس فيه معنى الاحترام العظيم لكل والدة لان الاحترام والامومة في نظري شيآن لا يسوغ فصل احدهما عن الآخر . ولكن للحقيقة سلطان يصعب على كل ذي نفس ان لا يحس به وان لا يخضع لحكمه

وعلى ذلك فاراني مضطراً ان اجهر باعتراف يشق عليَّ كثيراً الا وهو ان الام المصرية لم تهيأ مطلقاً لان تقوم بوظيفتها في العائلة وكاننا استغنينا عنها بوجود الاب وهو خطأ عظيم . لانه فضلا عن كون الام صاحبة الحصة الاولى من تربية الطفل في المدة الاولى من عمره فوجود الاب نفسه بجانب الطفل ليس مضموناً اذ قد يحرم منه بموت او بانفصال الوالدة عنه فتصبح الام رئيسة العائلة (او الحاضنة الشرعية لولدها) وعندئذٍ يقع على عاتقها الحمل الثقيل الذي كان ينوء به ظهر زوجها فتكون هي المكلفة والحالة هذه بالقيام بشؤون واحتياجات المنزل وطلب الرزق وادارة الاموال وتربية الاولاد

ولما كانت الام في بلادنا مجردة عن كل تربية عقلية او ادبية كان تأثيرها لغاية الآن على الاولاد رديئاً سيئاً وكانت هي السبب في عدم نجاح القليل من التربية التي يكتسبها الطفل من والده ومن تعليم المعلمين

واذا صرح لي ان ابدي كل فكري اقول ان الام في بلادنا صارت مدرسة ثابتة عملها الوحيد مكافحة كل ما يتلقاه الطفل الطفل من سواها . وقد يختار هذا الضعيف المسكين بين من يصدق ومن يكذب

من يتبع ومن يخالف . الا ان مدرسة الام لا شك فائزة على كل حال . لان الطبيعة تشتغل معها وتساعدها بما اودع الله في نفس الطفل من الميل الى الوالدة ولانه يعاشرها اضعاف ما يعاشر غيرها

ويكفي الواحد منا ان يلتفت الى الوسط الذي هو عائش فيه الآن ثم يرجع بفكره الى عهد شبوبيته الاولى فمهد طفوليته ليحكم بنفسه ان حالة الامهات لا يمكن السكوت عليها والاستمرار على قبولها وانها لا تناسب حاجات الوقت ولا تتفق مع ضالتنا التي ننشدها ونوجه لتحقيقها كل مساعينا وآمالنا

ليس بين الامهات الا عدد قليل جداً يعرف القراءة والكتابة . وليس واحدة لها المام ولو سطحياً بمقدمات اي علم من العلوم او فن من الفنون . وهي فوق ذلك جاهلة بكل احوال الدنيا ولا تدري شيئاً من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التي تسكنها فضلاً عن الالمام باي شيء من احوال البلاد الاخرى . وهي مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر او عمل . وامة داخل الامة لها اخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفي الحقيقة انهن آثار عتيقة لاجيال مضت وبقايا ازمنة بعيدة . وقد كنا نحن على حالتهن الحاضرة من ثلاثمائة سنة واكثر . ثم تقدمنا وارتقينا وهن باقيات على ما كن عليه في تلك الاوقات

قلنا انهن آثار عتيقة لازمان خالية ولكنها آثار حية غير بالية لها عمل وتأثير على عكس ما نريد . فهن لا يروقهن شيء من افكارنا كما

لا تعجبنا افكارهن

هن يعتقدن ان قواعد الصحة اشياء باطلة · وان دواء الطبيب لا يؤثر على الامراض وان الحركة والسكون في ايدي الاولياء والمشايخ والجن والعفاريت

فاذا مرض الولد بادرت الام فاخذت (اتره) واسرعت الى الشيخ المشهور فيأمرها باستعمال بخور او يكتب لها حجاباً · ولا شيء في الدنيا يمنعها من اتباع رأي الشيخ وهي تمنع كل شيء سواه · فكيف يمكنها مع هذا ان تحافظ على صحة ولدها وكيف تمنع عنه الخرافات التي تفعل في عقله ما يفعل السم في البدن ؟

ان الام لا يمكنها ان تبعد ولدها عن صفات الكذب والتحيل والغش والحمق والكسل والسفاهة اذا كان لا يخطر بفكرها ان هذه العيوب تبقى عند الطفل متى اعتاد عليها بل ولا انها عيوب شائنة

وهي لا تمكنها ان تنصحه او ترشده او تشجعه على دراسته او شغله اذا كانت لا تعلم شيئاً منها ولا تتخيل في ذهنها منفعة الشغل والمطالعة

فهي نفسها طفل كبير لا تزيد عن ولدها الصغير من جهة العقل ولا من جهة العواطف ولا تختلف عنه الا فيما ينتج حتماً من اختلاف السن بينهما · فهو يحب اللعب وهي تحب اللغط وكثرة الكلام · وهو يحب الحلوى وهي تحب شرب الدخان والقهوة · وهو يضرب اقرانه بيده او بالعصا وهي تضرب قريناتها بحد لسانها · ومتى خرجت من

هذه الدائرة الصغيرة فهي لا تستطيع ان تفهم كلمة ولا ان تعبر عن معنى

ومن الاسف اني شاهدت بنفسي مرات عديدة صبية يختلف سنهم بين ١٠ و١٢ سنة وسمعتهم يتكلمون عن والدتهم بما يقرب من الاحتقار والازدراء ويسخرون بما تقوله لهم وما تفعله معهم · فاذا كان الصبي قبل ان يبلغ رشده يرى نفسه — وله الحق — ارقى من والدته فليت شعري ما يكون مع هذا حال الام ؟

ولعله لهذا السبب عينه ترى الامهات ترمين دائماً اولادهن الذكور بالخسة وعدم الوفاء اذ يرونهم يميلون الى آبائهم اكثر من ميلهم اليهن · ولكن لو كان عند الامهات قليل ادراك لعذرن الابناء · اذ هم يألفون بالطبع من يفهمهم ويفهمونه · وهم يشعرون ولا ريب بأن آباءهم ارقى منهم · يجاوبونهم على كل سؤال بما يتحقق منه الابناء ان آباءهم يعلمون ما يعلمون هم واكثر منه فينجذبون الى معاشرتهم والاختلاط معهم اكثر من امهاتهم · والبنات بعكس ذلك

ونتيجة ما تقدم كله ان الرجال في مصر محرومون من اكبر لذة تقتضيها الحياة : الا وهي محبتهم لوالدتهم وبناتهم واخواتهم بقدر ما ينبغي

وليس مرادي اننا صرنا الى حالة نكره فيها اقاربنا النساء او اننا مجردون عن الحنو لهن · ولكني اقول ان المحبة الجوهرية التى تتكون من اتحاد الفكر واتحاد الاحساس — هذه المحبة الحقيقية الكاملة التي تمزج الشخصين وتجعلهما شخصاً واحداً · هذه المحبة التى نتمتع بها حتى مع الصديق الاجنبي عن عائلتنا عندما نأنس معه بالحديث في الجهر

وبالسكوت في السر كانما الارواح تناجي بعضها وتتواخى باشياء لطيفة — لا يمكن ان توجد بين رجل وامرأة مصريين

فاذا اردنا ان نحصل على أمهات محترمات يلدن رجالا ينفعون انفسهم واوطانهم فما علينا الا ان نبادر بتربية البنات ونصرف في سبيلها اكثر مما نفعله · او على الاقل مثل ما نفعله في تربية ابنائنا

اخلاق ومواعظ

١

(الموظف فلان بك)

لم يأت وقت على مصر فشت فيه المنافع الشخصية بين الموظفين واستعملت فيه الدسائس لقضاء الشهوات والانانية الدنيئة مثل هذه الايام التي يعدها بعضهم عصراً جديداً لتقدم المصريين

نعم حدثت نهضة خفيفة في قوة التمييز واستعدت العقول للبحث عن الحقيقة المطلقة علمية كانت او ادبية او سياسية ونمت القوة المدركة قليلاً بقدر ما يلوح الفجر · ولكني اقول والحزن يملأ قلبي ان اخلاق الموظفين وعلى الخصوص الكبار منهم لم تتقدم عن ذي قبل بل هي تقهقرت تقهقراً بيناً

ومهما كان اثبات امر من هذا النوع مخجلاً فقد رأيت من

الواجب عليّ ان اطرق باب البيان في هذا الموضوع عل الذكرى تنفع المؤمنين

وان من يتأمل في حركات الموظفين يشاهد منظراً عجيباً ذا فصول متقنة التمثيل لنوع اخلاقهم وفصول تتجدد في كل آن بطرق مختلفة وقد احببت ان أقربها بالبيان لافهام اخواني المصريين الذين يحول بينهم و بينها ستار المناصب فأقول :

هذا الموظف « فلان بك » الذي يرشح نفسه في كل يوم ثلاث مرات مرة عند الجناب الخديوي ومرة عند قنصلاتو انكلترا ومرة عند احد النظار العاملين

وهو رجل مشهور عند القوم . ومن أين جاءت له هذه الشهرة؟ من غفلتنا جميعاً . لاننا نحكم عليه بما نسمعه عنه منه فيقول لنا انا صنعت كذا وكذا وقلت كيت وكيت وطلب مني فلان العظيم ذاك الشيء فامتنعت واجبت فلانا الباشا بكذا . ووبخت المستر فلان على فعل كذا . وهلم جرا . ونحن السذج البسطاء نصدق ذلك ونعتبر ما يقوله حقاً مطابقاً للواقع . فيلذ لنا بعد ذلك ان ننشر عنه تلك الفضائل ونؤسس شهرته بايدينا ونحسبه من الافراد الذين يعدون على الاصابع والذين يدخرون لوقت الحاجة

نراه اذا كان في مجلس تحقق انه يكره الانكليز اول من يذمهم . واذا وجد نفسه في جمعية انكليزية كان اول من يذم ابناء جنسه . صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين يقول لهم آه لو كان الفرنساويون

هم الذين دخلوا بلادنا لكننا اسعد الناس · فان المصري ميال بطبعه الى الفرنساوي ونحن نعتبر ان كل تمدننا هو عمل الامة الفرنساوية ...
وسمعته مرة اخرى بين جماعة من الانكليز وقد فتح ازرار قلبه في خطابه لهم يناجيهم: انا اقول لكم فكري بالصراحة ولا اخشى من مخالفة اغلب المصريين لرأيي · انا اعتبر من حسن الحظ لبلادي ان فرنسا احجمت عن الدخول في مصر وان الامة التي احتلت وطني العزيز هي الامة الانكليزية العظيمة الشأن لانني لا انسى ابداً ما فعله الفرنساويون في مصر عندما احتلها بونابرت

يقول للسوري انه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم وانه لايجب التمييز مطلقاً بين افراد امتين تجمعهما جامعة واحدة · ويقول للقبطي انه ممن يبغض السوريين ويعلم سر كراهية المصريين لهم لانهم اجانب · ولكن الاقباط والمسلمين امة واحدة فيلزم ان يتحد الفريقان ليستأثرا بمنافع بلادهم الخ

وعلامة هذا الموظف المشهور هي انه متى وجد في مجلس لا بد وان يترك له اثراً يذكر به بعده في نفوس بعض الحاضرين ان لم يكن كلهم وعلى الاقل المهمين منهم · والاهمية عنده تكون على الترتيب الآتي في الظروف الحاضرة :

الانكليز · ثم الاوربيون عموماً · ثم الاقباط · ثم السوريون · ثم نصارى الشرق على العموم · ثم اليهود · ثم المصريون المسلمون

هذا الشخص يظن ان علم السياسة العملية هو غش الناس بكل

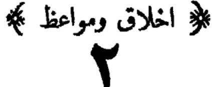
وسيلة . ومن الغريب انه يحفظ لنفسه مكانة بهذه الطريقة ولا يكشف حقيقة امره الا نفر قليل اذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف كما تضيع قطرة الماء في الاوقيانوس الاعظم

أيحب الناس من يغشهم دائماً ؟ ام قوة التمييز لا تزال ضعيفة فيهم ؟ انني لا اعلم ايهما حقيقة الواقع

ومن ذا الذي يعلمني ان رجلاً غشاشاً يكره الناس ولا يريد لاحد مطلقاً الخير — لا يحب الا نفسه . ولا يهتم الا بمنافعه الشخصية ان رجلاً يده مغلولة الى عنقه وقلبه جاف لا يفرح يوماً لفرح غيره . ولا تدمع عيناه لاحزان اقرب الناس اليه . ان رجلاً يهزأ بالناس كلهم حتى يتخذهم آلات لقضاء شهواته واطماعه — يستطيع ان يعيش محبوباً محترماً مشهوراً بين قوم متمتعين بقواهم العقلية ؟؟؟ !!!

هذا الذى ترك الاوهام حائرة * وصير العالم النحرير زنديقاً

﴿ اخلاق ومواعظ ﴾



(الموظف وانا مالي)

هذ الموظف كثير العدد في مصالح الحكومة ومنتشر في جميع طبقاتها الكبيرة والوسطى والصغيرة انتشار الذباب في الاماكن القذرة

يذهب في الصباح الى الديوان حتى اذا دخل في قاعة شغله وجلس على كرسيه اخرج من جيبه علبة السجاير واحرق واحدة منها منها . وفي خلال ذلك تأتيه القهوة فيشربها رويداً رويداً ثم يتثاءب

ويتثاءب . ويتثاءب . وبعد ذلك اما ان ينتقل الى مقعدة ليضجع ولو نصف اضجاع . واما ان يمن الله بالزائرين وينفتح باب المقابلات ويدخل عليه الطالبون والملحون ومن تبادل معهم من الامس وعد مجيئهم الى الديوان من الاصحاب والمسوبين عليه ومن استدعاهم لقضاء مصلحته كجزار يحاسبه ، او طباخ جديد ليجربه ، او مرضعة لنجله تطالبه فيلقون منه ما تقتضي شعائر المروءة والبشاشة والوعود حيث يخرجون واحداً بعد اخر ممتنين شاكرين . وتراه في اثناء ذلك كأنما نشط من عقال : غاب كسله . وذهب تثاؤبه . يبتسم مسروراً . لا يأنف من شيء ولا يمل من انسان — الا اذا كان طالباً ملحاً — يحكي بكل تلطف ويسمع بغاية الحلم . لا يستعمل قط حرف (لا) لانه نفي قاطع . ولكنه يعد ويعد ويعد بعبارات لا ترفع الامل ولا تستوجب اليأس ولو كان ذلك الامر مستحيلاً : مع انه يكون مصمماً على ان لا يفعل ولو كان الطلب ممكناً وسهل المنال

ولكن انظر اليه بامعان متى دخل عليه احد المستخدمين بورقة يريد عرضها عليه . تشاهد تبسمه قد غاب ووجهه تقطب وجاهد في استحضار قواه ليسمع ما يعرض عليه ويعي — وانّى له ان يسمع ويعي — فيقول المستخدم المسئلة مرة ومرتين وثلاثاً متفنناً في طرق التفهيم عساه يوقظ الفكر النائم — وهو ليس هنا —

ثم يلاحظ ان من حوله شاخصون ساكتون منتظرون فيتدارك الامر ويجيب باي عبارة صادفت او لم تصادف . وربما حوله على فلان

المرؤوس له بحجة انه مشغول الآن · او امره بارجاء عرضها الى وقت آخر لانها مهمة او غير مهمة فيخرج المستخدم المسكين كما دخل والمسئلة باقية وعليه صرفها باي طريقة كانت

لو سألته لماذا ترك مسئلة مهمة او لماذا لم يعارض في امر كان من الواجب والنافع ان يعارض فيه · اجابك يا اخي ماذا اصنع ??? الانكليز · · الخديو · · · النظارة · · ·

فاذا الححت عليه ساق الحديث الى اختلاف الجو بين اوربا ومصر · أو الى كدورة الهواء · او الى اشتغاله بانحراف صحة اهل بيته · او الى بيت لطيف تذكره من قول ابي نواس

واكره من هذا النوع على الخصوص « الموظف وانا مالي » الفشار الذي يفهمك انه قال وعمل ما يجب ان يعمل

يقول نعم انا ما سكت · واستلفت انظارهم الى جميع اطراف المسئلة وشرحت لهم جميع نتائجها وما يترتب علي عملهم من المضار · ولم أتأخر برهة عن اقامة الحجة عليهم بكل ما وسعني واظهرت لهم بالصراحة انني لست مشاركا لهم في الامر وانهم يعملون علي نقيض مبدئي بالمرة — ثم يختم كل عباراته هذه بقوله حينئذٍ : وانا مالي !!! · مع انه في كل ذلك لم يكن قد نطق بكلمة واحدة

يقابلك بغاية اللطف وحسن المحيا والاشارات المطيبة للخاطر فتظنه شريكك في الاحساس حتي اذا قصصت عليه شيئاً مما يشغلك الفيته بعيداً عنك · ابعد من ساكني القمر اليك · وترى اذا امعنت النظر

في وجهه كأنما رسمت عليه هذه الكلمة باحرف جلية : وانا مالي ، وانا مالي . وانا مالي

آه لو لم يكن مطلوباً منه ان يتكلم في بعض المسائل الخطيرة لكان « الموظف وانا مالي » سعيداً ، سعيداً ، سعيداً

ولذلك تشاهده ما سعى ولن يسعى الا على وظيفة لا تكون ذات اهمية الا في مرتبها . ومتى ادركها طمحت نفسه الى غيرها اهم منها من جهة المرتب ايضاً . وهكذا يستمر متنقلا من مرتب مهم الى اهم منه حتى يأتي اليوم السعيد الذي يناديه في كل آن فيحال على المعاش بمبلغ مهم جداً جداً جداً

﴿ اخلاق ومواعظ ﴾

٣

« الموظف الغاش بوطنيته »

كنت يوماً في منتدى جمع بين جماعة من خيار الموظفين والشبان الاذكياء الذين يدأبون على المطالعة ويحبون الجد والنشاط في الاعمال ممن يربطني واياهم اتحاد الفكر وتجمعني معهم وجهة الاحساس والشعور بحاجية جامعتنا . فدار الحديث بيننا على تعيين احد رفقائهم في وظيفة عالية وقد اتفقنا جميعاً على ان هذا التعيين يكون مجلبة خير كثير للبلاد . ثم مضت على ذلك ستة اشهر او حوالي ذلك واتفق اننا اجتمعنا مرة اخرى وقد دار الحديث على ذلك الموظف — الذي لم يزل في وظيفته العالية — فاتفقنا جميعاً على ان تعيينه كان مجلبة شر كثير للبلاد

وذلك ان هذا الموظف كان دائماً يتأوه معنا على حالة الانحطاط الاجتماعي من حيثية الاخلاق التي نحن فيها . وكان يقول كما نقول نحن ان اكبر اعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم واعتبروا ان الوظائف ما خلقت الا لكي تخدمهم لا لكي يخدموها . وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكمنا على انفسنا لانه كان مثلنا يرى من الواجب على الموظف ان يقوم بالمسئولية الملقاة عليه حق القيام . بل كان يزيد علينا في الرأي بان هذا الواجب يتعلق بالموظف ايا كانت الظروف والاحوال على درجة واحدة حيث كنا نختلف معه من هذه الوجهة ونقف بالواجب في كل حالة عند الحد الذي يناسبها بالحكمة والاعتدال . بمعنى ان الانسان لا يلزم الا بالواجب المستطاع اداؤه في كل وقت بلا مغالاة ولا تقصير . لان السير الحسن في الواقع ونفس الامر هو ما يترتب عليه نفع للوطن ولو كان مذموماً عند بديهة النظر بين الناس . وان السير القبيح هو على العكس من ذلك بشقية . ومن هذه الوجهة كان يطول بيننا وبينه الجدال ساعات ما احلاها لو تعود كما كانت عليه

ولكنها لا تعود : فقد ثبت عند الخاص والعام ان الوطنية كانت لدى صاحبنا هذا كلمة كغيرها يلفظها اللسان من اطراف مخارج الحروف فلا يعرفها القلب . كانت معدة لديه قنطرة ليجتازها بقدميه توصلا الى مكان مقصود له بالذات . كانت قلعة اختارها للدفاع عن نفسه من مهاجمة اعدائه . كانت راية تتبعها شهوات دنيئة وكان التفاتنا حولها خطأ

على ان غاية ما كنا نؤمله في وطنيته ان ينهج خطة الرشد في العمل ويألف مقال الحق ويشتغل على قدر ما تجود به قوته وتسمح به استطاعته · وان يساعد ابنـاء جنسه ويوجد لنفسه بعمله ونشاطه ويقظته وحسن سياسته مركزاً يجعله انسانا فعالا نافعاً خادماً امينـاً لابناء وطنه

فلما وصل الى حيث كان يرمي صار مثل كل جبان نذل يحب ذاته ويعبد انانيته · لا يهتم ولا يتحرك الا لصيانة مركزه الخصوصي وتحسينه ومحا من ذاكرته — محواً نهائياً — تلك الاقوال الجميلة الشائقة التي كان يطنطن بها عند ما كان الحديث يدور على اعمال الغير · بل صار مستحقاً للاحتقار اضعاف ذلك لانه غش الناس واستعمل الحيل لايهامهم انه يحرز شمائل وصفات لا يوجد ظلها في الحقيقة عنده : واني اني حيرة من امره

ما الذي حمل هذا الرجل الذي توفرت لديه وسائل واسباب كثيرة تمكنه من ان يعيش راضياً مرضياً عنه ومحترماً على ان يسلك طريقاً لم يكسبه الا المعرة ؟ !!!

فهو متعلم ونبيه · ذو قدرة على الفكر والعمل · لو ولد انكليزيا او فرنساوياً او المانياً — بل او بلغاريا او ارمنياً — لما وضع صفات التعلم والنباهة والقدرة على الفكر والعمل في غير خدمة ابناء وطنه · فهل عيبه الوحيد انه ولد مصرياً فلم يفكر الا في خدمة نفسه ؟؟

على ان الجمع بين الخدمتين ليس محالاً ولا متعذر الحصول : فقد

رأينا في جميع بلاد الدنيا ان الانسان قد تكون عنده شراهة في حب جمع المال والكسب وشغف بنوال الالقاب والرتب والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعد اخوانه ويكره اعداءه واعداء وطنه

فلماذا يا ترى يخالف الموظف المصري غيره حتى يعتبر ان منفعته الخصوصية يلزم ان تكون في جميع الاحوال مضادة للمنفعة العمومية ؟؟؟

كيف يتصور ان رجلا — تلقى العلم عن اهله وتربى على اجود قواعد التربية المتبعة في احسن الممالك وعاش في وسط حب الشغل والعمل تام وشاهد احوال الامم الاخرى ورأى تنافسها لبعضها في سبيل الترقي واحتك برجالها العقلاء — يرضى لنفسه عيشة الخمول والكسل ، لا تحركه غيرة ولا يهزه احساس ، ولا تستنهضه غاية شريفة يسعى وراءها

وماذا يكون بعد هذا الحال … زيد خاف عمراً وبكر خلف زيدا . الخ . وقال كلهم نحن نأتي بما لم يستطيعه الاوائل قبلنا . نحن ندري كيف نخدم وطننا . كيف نذود عن حقوق اهلينا . كيف نحفظ لجامعتنا شعارها وزمارها ودثارها . فلما جلسوا على الكراسي المذهبة . وتناولوا المرتبات الوافرة . وتصدروا في المجالس بحيثيات مناصبهم . ورأسوا الموائد في الولائم والمآدب قالوا لانفسهم انها لعيشة جميلة فلنتمتع بها ، واما بعدنا فلا نزل القطر :

ألم يفكر المصريون في عواقب هذه المخازي ؟

ألم يسمع هؤلاء المغرورون ان بعض الاجانب الذين يحبون مصر يقولون جهاراً : « اذا كان ابناء هذا العصر هم كما نرى فنحن نفضل عليهم آباءهم واجدادهم »

﴿ اخلاق ومواعظ ﴾

٤

« الموظف السياسي »

اذا كان المقصود بالسياسة الدأب على ارتكاب الاشياء الدنيئة كما عرفها (رشليو) المشهور فذلك الموظف يكون جديراً بأن يسمى سياسياً . لانه ماهر في فن المداهنة واستمالة الخواطر واختلاس الثقة من صدور الناس والدخول في دائرة مودة ولاة الامور بالالحاح والعنف والسقوط على اسرارهم الى اعماق الضمائر حتى اذا اخذ كل ما يريده منها كانت له سلاحاً يستعمله عند الحاجة لقضاء مآربه

يقول مالا يعتقد ويعتقد مالا يقول ، ويتظاهر بالشفقة على ذويه وباغاثة المظلومين ومساعدة الضعفاء ، ويهتم دائماً لان يكون له ملاذ قوي يلجأ اليه عند الضرورة ، وحزب يتقوى به عند الحاجه الى استعمال القوة الذاتية ، ومحاسيب يستعين بهم كوسائل لمطالبيه

عرف الناس جيداً ووقف على اخلاقهم فوضح له ان اكثرهم يفضل كلمة حلوة — ولو لم يعقبها عمل نافع — على انفع الاعمال مجرداً عن تلك الحلاوة . فحقق من ذلك لفظة عزبة .وحركة ناعمة تكفيان لان يؤسس عليهما شهرة سامية وسمعة فائقة !!!

ولا اقول انه لا ينفع احداً مطلقاً · وانما اقول لا ينفع الا نفراً من الناس يرى فيهم الاستعداد لان يكونوا مماليك في قبضة يده يتحركون حسب اشارته

اما مبدوءه فعدم المبدأ : كان عرابياً مع عرابى حيث كان رجل الوقت · فلما شام نجمه آخذا في السقوط تحول عنه وقطع اوداج العلائق معه وانكر بالمرة معرفته

ثم كان اول من اخذ طنبورته وغنى عليها نغمة المديح في الخديو سيد البلاد · ولكنه لما رأى قدم الانكليز يثبت بعد الاحتلال شيئاً فشيئاً وسلطتهم تتزايد يوماً فيوماً انحاز الى صفهم وارشدهم ونصحهم وواصلهم باخبار « آخر ساعه » ، وقدم لهم قوائم باسماء المشبوهين واطلق علي برنامجه هذا « سر الوطنيين »

ثم لما رأى مركز الخديو قد تقوى علي اثر تولية مولانا العباس وصار كما يجب ان يكون — اول عامل في ادارة البلاد — اخذ يقدح في الانكليز من ورائهم ويهجو اعمالهم ويشرح مقاصدهم السيئة حتى حزك النفوس لدى البعض ، واثار الشهوات عند البعض الآخر ، وبذر الفتن ، وجهز الزلازل ، ونفخ بفمه ريح العواصف ، وعكر المياه فطاب لهُ العيش في هذا الوسط المحشو بالاخطار · وكنت تراه خلال ذلك منشرحاً مسروراً كمن آل اليه ميراث جديد وصار في نشاط غريب حتى اوصل سياسة الغش والدهاء الى درجة لم يكن يحدث نفسه بها

وكان يذهب الى كل فريق فيخاطبه بالالفاظ العذبة التي تحلو على مسمعه فتمكن وقتئذٍ من الايقاع باشخاص كثيرين اما بنميمة القاها في وسط الحديث ، او باستعلامات غير حقيقية اخترعها : ولم يفكر لحظة في النتائج الوخيمة التي تترتب على هذه الاعمال

وقوة هذا الموظف كونه دائماً متيقظاً وعالماً بحركات الناس واميالهم وصفاتهم وعيوبهم · وكونه يشتغل ويعمل دائماً بنشاط وحركة لا يقبلان الملل :

لذلك تمكن من ان يكون ذا مركز مهم ومنزلة سامية بين الناس ·

يعتبره الاوربيون من ابناء مصر الفتاة الذين يقدرون اوربا حق قدرها ويعترفون لها بالفضل على مصر ويتمنون المعيشة تحت سيطرتها · والذين منتهى آمالهم ان تكون مصر بلدة مختلطة محكومة بحكومة مختلطة ·

ويعتبره الانكليز رجلاً نبيهاً قد يلزم رغماً عن عيوبه في بعض الاحيان لحل المعقود او لعقد المحلول من الامور على حسب مقتضيات الاحوال ·

ويعتبره المصريون انه رجل ذو دهاء يمكنه ان يؤدي للبلاد خدامات كثيرة وينال من الانكليز بالخديعه والحيلة ما لا يناله غيره

ولكنه في الايام الاخيرة قد اكتشف كثير من المصريين الذين يستعملون دخائل الامور وما يجرى وراء الستار ان سياسة

الرجل لا تخرج عن حبل « قره كوز » البسيطة · وان هذه الاوقات الصعبة التي تنتقل فيها البلاد من حالة الى حالة تستدعي رجالاً يفهمون منافع الوطن الحقيقية الدائمة ويشيدون آرائهم واعمالهم على العلم لا على الجهل

او لم يكن الاجدر بهذا « الموظف السياسي » ان يستعمل بعض الصفات التي امتاز بها على كثير من غيره في خدمة بلاده · وان يسعى الى المجد ورفعة القدر وحسن السمعة من طرقها الحقيقية التي تنحصر في تقوى النفس وعمل الخير؟

❋ اخلاق ومواعظ ❋

٥

(صاحب المعاش)

ترك الحكومة — او على الاصح تركته الحكومة — وهو اكثر ما يكون في الغالب متمتعاً بقواه البدنية العقلية · وسواء كان معاشه كافياً لاقتضاء لوازم معيشته او غير كاف · وسواء كان غنياً في حد ذاته او فقيراً تراه دائماً كثيف البال آسفاً على وظيفته اسفاً شديداً لانه يظن — كما اعتاد اهل بلادنا ان يعتقدوا ان الانسان قليل بنفسه كثير بوظيفته · ولانه يشاهد دائماً ان الواحد عند ما يكون في وظيفة عالية يحترم ويجل مقامه ويزار وتتزاحم العربات والبغال والحمير على باب منزله الذي يكون مزهراً بهجاً تحييه حركة مستمرة وتحف به حياة

طيبة . فاذا أحيل على المعاش انقضى كل ذلك واصبح هذا الشخص بذاته مهملاً مهجوراً بل ومندهشاً : كمن رأى رؤية مفرحة واستيقظ من نومه فجأة

فلما يتخيل صاحب المعاش كل ما كان عليه بالامس وما اصبح فيه اليوم لا يستطيع ان يمنع نفسه من التأثر والتحسر

ولو تذكر الناس ان الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جداً . وان كل انسان قادر على ان يرقي نفسه بنفسه وان يعلو على اكبر ملك في الدنيا بفضيلته وعلمه ، لما رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئاً

ولكن كيف يتأتى وجود هذه الملكة في امة تصورت انها خلقت ليحكم نصفها النصف الآخر ؟ !!! وعند رجال اذا قلت لهم علموا اولادكم قالوا « انا لا نجد في التعلم فائدة حيث الحكومة اقفلت ابوابها في فيوجوه ابنائنا » !!! . كأن العلم لا قيمة له في حد ذاته او كأن العلم كسب المال سهل وحل في الحكومة ، صعب وحرام خارجها

ومما يزيد تألم صاحب المعاش على فراق وظيفته انها كانت في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يشغل اوقاته بها — لا لانه كان منهمكاً في تأدية جميع الواجبات المتعلقة بها — بل لانه اعتاد على ان يمضي وقته بكيفية مخصوصة لم يعد في امكانه استعمالها . ولذلك ترى ارباب المعاشات في حيرة لا يدرون معها ماذا يصنعون لاجل ان يقتلوا الزمان قبل ان

يقتلهم . فمنهم من يخرج في الصباح لزيارة من هم على شاكلته يومياً ولا يعود الا وقت الظهر - ومنهم من يقصد القهاوي والاندية العمومية للعب النرد او ما شاكله من الساعة السابعة صباحاً الى ان ينبهه دوي مدفع الظهر ايضاً . ومنهم من يجلس على كرسي امام باب منزله او حانوت او اجزاخانة ليتأمل في حركة الشارع نحواً من اربع او خمس ساعات ومنهم من يقضي اكثر اوقاته معتكفاً في المساجد. ومنهم من يطوف على مصالح الحكومة يومياً ليتمتع بمشاهدة السلطة التي حرم منها حيث يجد في الاحتكاك باهل الحل والعقد بعضاً من اللذة او التعزية

ولم ار فيهم من اوجد لنفسه عملاً يشتغل به بدلا عن وظيفته !!

اتعرف ايها القارىء واحداً من ارباب المعاشات الذين يكثر عددهم كل يوم يشتغل في منزله ساعة او ساعتين يتعلم علم يجله او اتقان فن تعلمه ? ومنهم الطبيب والمهندس والعسكري والاداري والمتشرع ، وبين جميع هؤلاء الغني والفقير المحتاج ؟؟ فهلا اشتغل الغنى لترقية عقله والفقير كذلك . او استعان هذا على معالجة فقره بالسعي في طلب الرزق ؟؟

ايليق بقوم يطمعون في تحسين مستقبلهم ان يعيشوا في وسط التنافس العام بالبطالة والكسل ؟؟

ومما يدهش الفكر ويؤلم النفس ان صاحب المعاش يرى من حين تخيله عن المنصب انه لم يبق من الواجب عليه ان يهتم بشيء مما يحصل ا بالمرة . فاذا سمع خبراً محزنا او نبأ واقعة مكدرة تراه بعيد الشعور

بقدر ما هو بعيد عن الوظيفة او بقدر ما هو قريب امل الرجوع اليها واول كلمة تخرج من فيه « الحمد لله على اني في بيتي و بعيد عن نصب المنصب » . كأنه صار اجنبياً عن البلاد بالمرة . وكثيراً ما يتصامم عن سماع اي حديث يكون موضوعه المصلحة العمومية : لانه لا يحب ان يتداخل في شوءون الحكومة !!! وقد يفضل على ذلك سماع القصص الخرافية ونوادر الاعصر القديمة التي يحفظها بوعى وذاكرة قوية ليته استعملها لحفظ شيء نافع

